البحث

صور من شعر حسان بن ثابت
" رضي الله عنه "
في
هجاء بعض المشركين
دراسة نقدية

إعداد

د / عبد العاطي سيد حرب سالمان

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

لجنة التحكيم

أ.د/ عبد الصبور ضيف محمدي عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د/ حمدان عبد الرحمن أحمد عضو اللجنة العلمية المحكمة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، واهب النعم، ومجزل العطاء، خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي العربي الذي تكلم فأعرب، وأفصح فأبان، وقال في حديثه الشريف : [إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة]، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في الله حق جهاده بسيوفهم وألسنتهم، ودافعوا عن دعوة الإسلام بأفعالهم وأقوالهم، بل وبكل ما أوتوا من قوة، فنصرهم الله بنصره، وأيدهم بجنده، فكانوا هم الغالبين، وعلى عدوهم ظاهرين " إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ "، أما بعد،

فهذا بحث في الأدب الإسلامي جاء تحت عنوان: "صور من هجاء المشركين في شعر حسان بن ثابت "، وهذه القضية جديرة بالبحث ـــ خاصة ـــ إذا كانت قاصرة على هجاء بعض الأفراد المشركين الذين حاربوا الدعوة الإسلامية، وكانوا من أشد أعدائها، ومن هؤلاء الأفراد من كانوا شعراء وقادة وفرساناً في وقت واحد، فحاربوا المسلمين بالسنان، واللسان، ودارت المعارك الحربية وبجانبها المعارك الشعرية، والتي لا تقل أهمية عن الأولى، وكان لابد للمعارك الشعرية الإسلامية من أمير وقائد محنك يقودها ويحركها، فكان حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ الذي اختاره الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وسانده، عندما طلب له العون والتأييد من الله ـــ تعالى ـــ بهذا الدعاء " اهجهم وروح القدس معك " [1] وفي رواية " اللهم أيده بروح القدس " [2] .

والذين درسوا حساناً وشعره لم يضعوا دراسة مستقلة لهذه القضية، بل تكلموا عنها مع الأغراض الأخرى لشعر حسان، ولكنني رأيت أنها تحتاج إلى دراسة خاصة بها، فكانت هذه السطور التي أرجو أن تكون مفيدة ونافعة وأضافت شيئاً إلى ما كتبه السابقون ـــ وهم كثير ـــ عن حسان وشعره .

---

(١)(٢) راجع هذه الأحاديث الشريفة في فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ج ١٦ من ص ٤٣٩ : ص ٤٤٠ تحقيق طه عبد الرءوف سعد، وانظر ص ١٥ من هذا البحث .

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد، وثلاثة مباحث :

تمهيد، ويشتمل على التعريف بها ومدخل إلى هذه الدراسة .

المبحث الأول : وفيه ذكرت بواعث هذا الهجاء ودوافعه عند حسان ـــ رضي الله عنه ـــ .

والمبحث الثاني : كان تحت عنوان " صور من هجاء المشركين في شعر حسان " وهو لب هذه الدراسة .

ثم المبحث الأخير : وهو من الخصائص الفنية في هذا الهجاء .

ثم فهرس المصادر

والله أسأل أن تعم بها الفائدة وينفع بها .

الباحث

صـــور مـــن هجاء المشركين

في شعر حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ

تمهـــــــيد :

حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن زيد بن مناة بن عدي ابن مالك بن النجار الأنصاري ... [1] ولا أريد أن أسير في هذه الترجمة وأتحدث عن شاعر الإسلام الأول .. وعن حياته ونشأته وعلاقته بغيره إلى آخر هذه النقاط التي يتناولها الكثير من الكتاب والدارسين عندما يعالجون قضية عند أحد الشعراء لأسباب منها : إن حسان بن ثابت غني عن التعريف فمن يجهل هذا الشاعر ومكانته الأدبية في الجاهلية والإسلام ؟ وعلى أقل تقدير عند من يشتغل بتاريخ الأدب ونقده ؛ ومن الأسباب أيضاً : أن هذه الترجمة والحديث عنها قتلها الدارسون بحثاً، ولم يتركوا منها شاردة ولا واردة، لأنها تتعلق بشاعر الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ، ومنها أيضاً أحسست أنني مهما نقبت في كتب تاريخ الأدب والسير والتراجم لا أضيف جديداً إلى ما كتبه السابقون عن هذه الشخصية المعروفة قديماً وحديثاً، فذاعت شهرته وعرفه النقاد والدارسون ومحبوا الأدب والشعر، وكان لنتاجه الشعري في الإسلام مذاقه الخاص، والذي عبر فيه عن مواقف مشرفة، حمل على عاتقه فيها ومن خلالها الدفاع عن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ والذب عن أعراض

---

(١) راجع في ترجمته : الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٨ وما بعدها، والأغاني لأبي الفرج ج ٤ ص ١٣٤، ط / دار الكتب، ط / ساسي ج ١٦ ص ١٢ وما بعدها وتاريخ دمشق لابن عساكر ج ٤ ص ١٢٥، وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ١١٥ وما بعدها، ط / دار المعارف بمصر، والموشح للمرزباني ص ٦٠، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج ٢ ص ١٤٤، رقم الترجمة (١٧٠٧) ط / دار الغد العربي والاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة ج ١ ص ٧٤١ رقم (٥٢٥)، وأدب الدعوة الإسلامية للدكتور مصطفى محمود يونس، ص ١٥٩ وما بعدها، وغير هذه المراجع كثير جداً ممن تناول الشعر العربي في عصريه الجاهلي وصدر الإسلام، وقد عرف شاعرنا بأنه شاعر الإسلام، وشاعر الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ، وراجع كذلك في ترجمته العصر الإسلامي د . شوقي ضيف ص ٧٩ وما بعدها وغيرها كثير .

المسلمين، مما شجع المؤرخين والنقاد على البحث والتنقيب في تراثه الأدبي ونتاجه الشعري عن كل ما خفي، ويقدموه لمحبيه، ومن هذا المنطلق كان هذا البحث تحت عنوان " صور من هجاء المشركين في شعر حسان بن ثابت " .

وقد قصرت الحديث فيه عن هجائه للأفراد دون القبائل والجماعات، وهذا الجانب أرجو أن أضيف من خلاله جديداً ـــ حتى ولو كان يسيراً ـــ نعم اهتم الباحثون بحسان وكتبت حوله الكثير من الدراسات، وقد كفتنا هذه الدراسات الترجمة له أو الحديث عن نشأته وقبيله وحياته .. ، وأذكر منها على سبيل المثال : حسان بن ثابت للدكتور محمد طاهر درويش، وحسان بن ثابت للدكتور سيد حنفي، وحسان بن ثابت للدكتور إحسان النص، وغيرها من هذه الدراسات التي كانت خاصة بدراسته كشخصية أدبية، وكشاعر له مكانته الشعرية في الجاهلية والإسلام .

ولم يغفله القدامى فقد ذكروه في دراساتهم التاريخية والنقدية، ونذكر منهم على سبيل المثال أيضاً : " ذكره أبو عبيدة قائلاً : " فضل حسان على الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار (يثرب) في الجاهلية، وشاعر النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام " [1] .

وكذلك ذكره صاحب الطبقات بقوله ـــ تحت طبقة شعراء القرى العربية ـــ (أشعرهم حسان بن ثابت هو كثير الشعر جيده .. " [2] وذكره صاحب الشعر والشعراء، وابن الأثير وابن هشام في السيرة، وابن كثير، وصاحب كتاب شرح صحيح مسلم " فضائل حسان بن ثابت، وفتح الباري وغيرها كثير، ويذكر الدكتور شوقي ضيف عنه " ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً، وقد اتفق الرواة والنقاد بأنه " أشعر أهل المدر في عصره، وأنه أشعر أهل اليمن قاطبة .. " [3] .

ومن ثم " لا يذكر التاريخ شاعراً ارتبط بالدعوة الإسلامية كما ارتبط بها حسان بن ثابت،

---

(١) راجع الأغاني لأبي الفرج ج ٤ ص ٣٠، ط / ساسي و ص ١٣٦ ط / الدار، وشعر المخضرين الجبوري ص ٦٣ .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨٧ .

(٣) راجع العصر الإسلامي د . شوقي ضيف، ص ٧٩ وما بعدها، ط / دار المعارف .

ولا ينقل الرواة شعراً خدم الدعوة الإسلامية كما خدمها حسان بن ثابت .. هذا الرجل كان أكبر شعراء الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ويمتاز بالصدق والإخلاص .. " [1] .

وقد نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الجديد والرد على أنصار القديم، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية الوطيس، فكان الشعر، شعر نضالٍ، يهجي فيه الأعداء ويمدح فيه رجال فريق الإسلام، فلم يكن هجاء حسان لهؤلاء الأفراد الذين حاربوا الإسلام للتكسب أو الاستجداء أو لعداء شخصي أو حقد فردي، لكنه كان للدفاع عن العقيدة الإسلامية، ومن ثم اصطبغ هذا الشر بصبغة السياسة الدينية، ولم ينتظر حسان من ورائه الجزاء والثواب إلا من الله ـــ تعالى ـــ " فعند الله في ذاك الجزاء .... "

فماذا قال حسان ؟ وما بواعث هذا الشعر ؟ وما منهج قائله فيه ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سنجد الإجابة عليها ـــ بإذن الله تعالى ـــ في السطور التالية .

(١) أدب الدعوة الإسلامية د . مصطفى يونس ص ٥٩، راجع ديوان حسان ـــ الأستاذ عيد أ، ميتا ص ١٣، ٢٢ .

المبحث الأول

بواعث هجاء المشركين عند حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ

من المعروف أن الله ـــ تعالى ـــ أرسل رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ للناس كافة بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، والمشركون، وأمر رسوله بتبليغ الرسالة للناس عامة، ولعشيرته خاصة، فقال تعالى في نفس السورة التي تحمل اسم الشعراء " وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " [1] فجمعهم ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كما ورد ذلك في السيرة ـــ وأنذرهم، وهنا ينقسم الناس إلى فريقين ـــ فريق الإيمان الذي صدق وآمن بالدعوة الإسلامية السامية، وكانوا في بداية الأمر الضعفاء الذين ظلمهم قومهم وفرضوا عليهم الحصار، وفريق الضلال والكفر الذي أصر على العناد والطغيان، وكانوا في بداية هذا الأمر هم الأقوياء، وكان هذا في مكة المشرفة، ويأذن الله لرسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بالهجرة إلى المدينة المنورة واتخاذها مقراً لدعوته، وقيادة الدولة الوليدة، ومن ثم انقسم العرب إلى هذين الفريقين ـــ وقد احتدم بينهما الصراع منذ أن بدأ المشركون في مكة يستعملون أسلوب البطش والقسوة ضد ضعاف المسلمين، وكذلك أسلوب المطاردة والاضطهاد ضد أصحاب رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الذين ألقوا بأنفسهم وأجسادهم في هذا اللهيب المشتعل، مستسلمين لأمر الله ورسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إلى أن أذن الله لهم بالجهاد والمجابهة في قوله تعالى : " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا الله".. الأية (٢) [2] .

ومن ثم بدأ الصراع المسلح يأخذ دوره، وتشتعل المعارك الحامية الوطيس، وقد عقد ابن هشام في سيرته باباً تحت عنوان: "نزول الأمر لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في القتال " ومما ذكره بعد سياقه السند " وكان رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قبل البيعة لم يؤذن له في

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٢١٣، ٢١٤ .

(٢) سورة الحج الآيتان : ٣٩، ٤٠ .

الحرب، ولم تحلل له الدماء .. " ثم يذكر أنه أمر بالدعاء والصفح ويذكر موقف قريش من المسلمين وهجرتهم إلى أرض الحبشة، ثم يذكر أول الآيات التي أذن الله فيها للمسلمين بقتال المشركين [1]" ويتابع سرد السيرة بعد الهجرة المباركة وبناء المسجد وقصة المؤاخاة، ثم يذكر السرايا قبل غزوة بدر، ومن ثم فرض الجهاد على المسلمين للدفاع عن أنفسهم ورد حقوقهم المغتصبة، ويذكر أن أول راية عقدها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كانت لعمه حمزة ــ رضي الله عنه ــ وقد زعموا أنه قال في ذلك شعراً يذكر فيه ذلك، فإن كان قال فقد صدق إن شاء الله، لأنه لم يكن يقول إلا حقاً، فالله أعلم [2] .

وهنا يفرض الجهاد على المسلمين، ويأمر الله نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يحرضهم عليه قائلاً : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ " [3]، الآية، وقوله للمؤمنين جميعاً في كل مكان وزمان : " وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ... " الآية [4] .

ومن هنا لم يكن المسلمون هم الذين بدأوا بالقتال واستخدام السيوف والرماح، ولكن كان هذا دفاعاً عن أنفسهم ورد عدوان هؤلاء المعتدين، انطلاقاً من التشريع الإلهي الذي أمرهم به القوي المتين ــ تعالى ــ بقوله : " فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ... " [5] .

وبجانب الاعتداء المسلح على المسلمين من قبل المشركين، اعتدوا عليهم كذلك بسلاح آخر لا يقل أهمية عن السلاح المادي وهو الشعر الذي كان له أثره الكبير في نفوس هؤلاء، وقد استخدمت قريش الشعر ضد المسلمين للتشهير بهم وفضيحتهم أمام المجتمع العربي ــ إن صح التعبير ــ وذلك عندما بدأ الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوجه السرايا ضدهم، ومنها سرية

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ج ١ ص ٣٨٧ وما بعدها .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ج ١ ص ٦٣٢ .

(٣) سورة الأنفال من الآية رقم : ٦٥ .

(٤) سورة الأنفال من الآية رقم : ٦٠ .

(٥) سورة البقرة من الآية رقم : ١٩٤ .

عبد الله بن جحش ـــ رضي الله عنه ـــ التي كانت في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم، وقد قتل فيها المسلمون رجلاً من المشركين، وأسروا آخر، وغنموا ما كان مع المشركين، وعندئذ أخذ المشركون يهاجمون المسلمين، ويشهرون بهم في العرب، لأنهم هتكوا حرمة الشهر الحرام، وازدادت الأقوال في ذلك وتدخل اليهود، وتساءل المسلمون .. فنزل قول الله تعالى : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ... " (١) .

ومن خلال هذه القصة نرى أن المسلمين لم يكونوا البادئين بإدخال الشعر كسلاح في ساحة المعركة، وفي حلبة الصراع الديني أول الأمر ـــ كما هو الحال في استخدام السلاح المادي إلا بعد الاعتداء عليهم وظلمهم وإخراجهم من ديارهم بغير حق (٢) .

يقول بعض الباحثين " لم يكن المسلمون هم البادئين بإدخال الشعر في حلبة الصراع الديني أول الأمر، وما كانوا لهم أن يفعلوا ذلك، فإن قرآنهم الكريم فيه غنية عن وسائل الإقناع الأخرى، لمن يشاء أن يتعقل ويستجيب، ولكن قريشاً لم تدع المجال مفتوحاً لكي يصل القرآن إلى عامة الناس، إذ أخذت تهاجم المسلمين بشعرها لتعلن عن ضعف المسلمين، وتتهمهم بالجبن والفرار، أو تسمهم بالتمرد على العادات والتقاليد .. فكان طبيعياً أن يتدخل الشعر الإسلامي في المعركة، وأن يرد على الكائدين كيدهم .. ويفند دعاواهم، ويشهر بغدراتهم .. " (٣) .

وقد أصبح الجهاد منذ أن فرضه الله على المسلمين القادرين عليه، غير قاصر على السيف، أو الرمح، أو العدة الحربية المادية، بكل أشكالها، ولكنه أصبح بكل ما يستطيعه الفرد المسلم، وغدا الشعر أحد أسلحة هذا الجهاد، بل من أقواها وأكثرها تأثيراً، لأن صاحبه ليس له وقت محدد، فالمعركة المادية سرعان ما تنتهي ؛ أما المعركة الشعرية فهي مستمرة ما دام هناك صراع بين هذين الفريقين، وهذا ما نأخذه من معاني الاستمرارية في هذه الآية التي نزلت في هذا الصراع بين الحق

---

(١) سورة البقرة من الآية رقم : ٢١٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٩٠ : ٢٩٤ .

(٣) راجع : الشعر الإسلامي في ظلال النبوة والخلافة الراشدة د . عبد السلام عبد الحفيظ ص ١٣٩ وما بعدها .

والباطل (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ...) [1] .

ومن أهم البواعث في هجاء حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ للكفار يمثل هذا الشعر ــ الذي سنقف عند بعض صوره ــ هو الجهاد في سبيل الله تعالى، فكان شعره هو سيفه وسلاحه الذي ينافح ويدافع به في سبيل الله، وعن رسول الإسلام ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبدأت هذه الحرب الإعلامية والنفسية تساند الحرب العسكرية الجسدية، فكانت تتأثر بها النفوس، وتجمع تحت راياتها القلوب وتحشد لمعاركها الكتائب، وتسوق لميادينها الرجال، تستنهض الهمم، وتشحذ العزائم، وتستثير العواطف، وتحرك الشاعر، وتعمل على إشاعة روح اليأس والهزيمة، وإضعاف الروح المعنوية في نفوس المشركين، وكان قائد هذه الحرب هو شاعرنا " حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ .

ومن البواعث أيضاً لهجاء حسان للمشركين، استجابة هذا الشاعر المخلص لدينه، لنداء الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأنه كان يدرك أن للشعر دوره الخطير في تلك المعارك الدائرة، ويعرف تأثيره الفعال في هؤلاء القوم ومدى هيمنته على عقليتهم، وتأثيره السحري على مشاعرهم وعواطفهم، وماله من قدرة على تحريك أفكارهم، وفي إثارة نفوسهم، وقد سبق أن أشرنا إلى أن المشركين سيلجأون إلى الشعر في حروبهم مع المسلمين ويتخذونه سلاحاً قوياً ضدهم، فكان لابد من امتلاك هذا السلاح ومجابهة العدو بمثله، ولابد من امتلاك زمامه في بداية هذه الصراعات وتلك الحروب، ومن ثم انتدب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهذه المعركة فرسانها وعلى رأسهم شاعرنا حسان، وأمره أن يرد عليهم وينتصر منهم بنفس سلاحهم، وهذا ما نقلته كتب الحديث والسير والمغازي والتفسير، ومنها على سبيل المثال ما جاء في تفسير الآلوسي، عندما تعرض لتفسير آخر سورة الشعراء قال بعد كلام طويل : " ... وجواز الهجو لمن ظلم انتصاراً كذا قيل، واعلم أن الشعر باب من الكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح، وفي الحديث " إن من الشعر لحكمة " .. وقال عليه الصلاة والسلام لحسان ــ رضي الله عنه ــ اهجهم ــ يعني المشركين ــ فإن روح القدس سيعينك، وفي رواية " اهجهم وجبريل معك، وأخرج ابن سعيد عن ابن بريدة أن جبريل

(١) سورة البقرة من الآية رقم : ٢١٧ .

عليه السلام أعان حساناً على مدحته النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بسبعين بيتاً .. وأخرج أحمد والبخاري، وأبو يعلي وابن مردويه .. عندما سئل النبي عن الشعر قال وإن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به تضح النبل " [1] .

ويستطرد قائلاً : " وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين قال : قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ليلة وهم في سفر أبن حسان ابن ثابت ؟ فقال : لبيك يا رسول الله وسعديك، قال : خذ فجعل ينشده ويصغى إليه حتى فرغ من نشيده، فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لهذا أشد عليهم من وقع النبل ... " [2] .

وجاء في كتاب الإصابة بعض الإشارات التي تدل على أن حسان ابن ثابت هجا المشركين استجابة لأمر الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأنه قال له " اهجهم، أو هاجهم وجبريل معك " وقال أبو داود : حدثنا لوين عن ابن أبي الزناد ... عن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ أن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً، يهجو الذين كانوا يهجون النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقال له رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إن روح القدس مع حسان مادام ينافع عن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ " [3] .

وقد عقد البخاري ـــ رحمة الله عليه باباً كاملاً، ضمن كتاب الأدب، في صحيحه تحت عنوان " باب هجاء المشركين، وذكر فيه عدة أحاديث منها : حديث عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ : استأذن حسان ابن ثابت النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في هجاء المشركين .. الخ برقم (٦١٥٠) وحديث : اللهم أيده بروح القدس .. برقم (٦١٥٢) وحديث البراء : أن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال لحسان اهجهم .. الخ (٦١٥٣) [4] .

---

(١)(٢) تفسير الألوسي ـــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـــ للمفسر محمود ابن عبد الله الألوسي ج ١٣، ص ٣٦٥ .

(٣) راجع الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج ٢ ص ١٤٤ : ١٤٧، رقم الترجمة (١٧٠٧) ط / دار الغد بتحقيق طه عبد الرؤوف بدون .

(٤) راجع هذه الأحاديث الشريفة في فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ج ١٦ من ص ٤٣٩ إلى ص ٤٤٠، بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد .

ومن خلال النظر في هذه الأحاديث نرى أن من معانيها ما يجعل هجاء المشركين من أنواع الأسلحة التي لابد منها في هذا الصراع الإسلامي ـــ وأيضاً ـــ هو نوع من الجهاد في سبيل الله تعالى ثالثاً، هو انتصار للمسلمين من المشركين، وهذا هو الاستثناء الوارد في الآية : " وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ... " وربما تكون هناك علاقة بين هذه الآية، وأختها التي وردت في سورة النساء في قوله تعالى : " لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً"[1].

فهذا الهجاء من حسان كان جهاداً في سبيل الله، ودفاعاً عن الإسلام ومنافحة عن الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ .

ومن البواعث والأسباب التي جعلت حسان يتصدى لهؤلاء المشركين ؛ ويذيقهم الذل والهوان بلسانه الصارم، ويغرف من بحر شعره المتلاطم الأمواج بمثل هذا الهجاء القوي الذي كان ينكأ في أعداء الإسلام، نكأ السيوف والرماح، بل أشد .

شاعرية حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ وقوتها :

وكما سبق أن أشرنا أنه كان شاعراً مجيداً، ولا يجاريه أحد ـــ كما قال هو عن نفسه، وفي هذا نظر ـــ ويذكر ابن قتيبة قول حسان هذا " وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله، ويقول ما يسرني به من مقول أحد من العرب، والله لو وضعته على شَعْر لحلقه، أو على صخر لفلقه)[2] .

وذكر عنه أيضاً (.. هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية .. وقال الأصمعي " شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ..)[3].

وكما يقول أحد الباحثين " فحسان من بقية الجاهليين الفحول، ولم يبق في عصره من يطاوله مكانة غير لبيد، وكعب بن زهير، والحطيئة، ولم يستطع أحد من هؤلاء أن يبرز في الإسلام

---

(١) سورة النساء الآية رقم (١٤٧) .

(٢)(٣) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق د . مفيد قميحة ص ١٨٨ وما بعدها .

ويساير الدعوة مثله، وكان حسان هو الشاعر البارز الذي يهابه الخصوم، فكانت قريش تجزع الجزع الشديد من هجائه، حين يطعن في أحسابها ويرميها بالهنات [1] ـــ كما سوف يأتي ـــ ٠

ومن ثم كان حسان من أبرز الشعراء الذين رفعوا راية النضال الفكري والشعري ضد المشركين، وأنه أقوى شاعر اعتمد عليه الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في الذب عن أعراض المسلمين، ضد هجاء قريش أول الأمر، عندما أخذ شعراؤها يهجون الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ، والمسلمين، فنصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الجديد والرد على أنصار القديم، وقد نشبت بين الفريقين معركة لسانية حامية الوطيس، فكان شعر حسان شعر نضالي وجهاد، ولم يطلب في مقابلته الجزاء إلا من الله ـــ تعالى ـــ وهذا ما صرح به في قوله :

هجوت محمداً فأجبت عنه ∴ وعند الله في ذاك الجزاء [2]

ومن ثم أصبح حسان شاعر الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأصبح شعره سجلاً لجميع الأحداث التي توالت على المسلمين، وأصبحت له منزلة خاصة في نفوسهم، لدفاعه عن الإسلام ومنافحته عن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأحيط شعره بهالة من الإعجاب والتقدير، لأنه كان قوي التعبير، صاحب موهبة فائقة وملكة شعرية عجيبة، جعلت من يقول فيه شعراً لا يحتمله لقوة تأثيره فيه، بل يصل به الحال إلى أن يبكي كالصبيان ؟ ! وهذا ما يورده بعض الدارسين والنقاد، ومنهم د ٠ شوقي ضيف الذي يذكر في هذا المعنى " وبحق سمي حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مصمية، وقصته مع الحارث بن عوف المري، حين قتل في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة، فقد قال فيه وفي عشيرته :

إن تغدروا فالغدر منكم شيمة ∴ والغدر ينبت في أصور السخير [3]

---

(١) راجع شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، د . يحيى الجبوري ص ٦٣، ٦٤ ٠

(٢) ديوان حسان بن ثابت، الأستاذ عبد أ، مهنا ص ١٣، ٢٠ ٠

وحسان هنا يهجو أبا سفيان بن الحارث، وسوف نترجم له فيما بعد ٠

(٣) راجع ديوان حسان ص ١٦٧ ٠

وبكى الحارث بدموع غزار من هذا الهجاء، واستجار بالرسول متوسلاً إليه أن يكفه عنه . . " [1] .

ومن ثم فقد كان " الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يؤثر حساناً ويوجهه الوجهة الفنية التي تردع خصوم المسلمين، فالرسول الكريم كان يرى أن الملكة الشعرية في حسان أصلح منها في سواه، وقد جند رسول الله ملكة حسان هذه في سبيل الدعوة، ووجه مقدرته الهجائية لمناقضة الخصوم . . . " [2] .

ومن يرجع إلى كتب السير، والحديث الشريف، يجد بعض الأخبار والروايات التي ينسبها الرواة للرسول الكريم تؤكد أن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فضل شاعرنا على غيره من الشعراء وانتدبه ليكون المدافع الأول عن الدعوة الإسلامية، وذلك لما لمسه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في شعر حسان السابق من جزالة في اللفظ ورصانة في الأسلوب، وتملكه زمام المهاجاة، وتمرسه لفن القريض، والقدرة الفائقة على النيل من خصومه، كذلك كان حسان شاعراً معروفاً ومرموقاً في الجاهلية فهو شاعر قومه الخزرج، ومن ثم عرف الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ مقدرة حسان الهجائية في إسكات الخصوم، فحرص على أن يجعله شاعره الأول، بل ويدع له بالتأييد بروح القدس .

وقد وجدنا هذا المعنى في كتب الصحاح ومنها : ما جاء في صحيح البخاري مثلاً : " حدثنا محمد، حدثنا عبدة أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ قالت : استأذن حسان بن ثابت رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في هجاء المشركين، فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فكيف ينسبي، فقال حسان لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين"[3] وفي شرح هذا الحديث في أسفل متنه جاء : " . . . روى ابن وهب في جامعه، وعبد الرازق في مصنفه من طريق محمد بن سيرين قال : " هجا رهط من المشركين النبي ـــ صلى الله عليه وسلم

(١) العصر الإسلامي د . شوقي ضيف ص ٧٩، ط / دار المعارف .

(٢) المخضرمين، د . يحيى الجبوري ص ٦٤ .

(٣)(٢) راجع فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ج ١٦ ص ٤٣٩ .

ـــ وأصحابه، فقال المهاجرون : يا رسول الله ألا تأمر علياً فيهجو القوم ؟ فقال : إن القوم الذين نصروا بأيديهم أحق أن ينصروا بألسنتهم، فقالت الأنصار : أرادنا والله، فأرسلوا إلى حسان فأقبل، فقال : يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما أحب أن لي بمقولي ما بين صنعاء وبصرى، فقال : أنت لها، فقال لا علم لي بقريش، فقال لأبي بكر أخبره عنهم ونقب له في مثالبهم وهو عند مسلم .. ومعنى لأسلنك منهم، أي لأخلصن نسبك من هجوهم بحيث لا يبقى شيء من نسبك فيناله الهجو ... " [٢] .

وجاء في صحيح مسلم ـــ رحمه الله تعالى ـــ بشرح النووي" باب فضائل حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ وتحته عدة أحاديث عنه وعن شعره وتميزه فيه، ومكانته عند الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ومنها على سبيل المثال : " .. حدثنا يحيى بن يحيى بن زكريا عن هشام بن عروة عن أبيه (الحديث الذي ذكره البخاري) وقد سبق ذكره هنا، فهو من الأحاديث المتفق عليها، لكن يذكر الشارح في نهاية هذا الحديث : " كما تسل الشعرة من الخمير "، فقال حسان :

وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

قصيدته هذه [١] .

ونكتفي بذكر هذا الحديث من هذه المجموعة الشريفة في فضائل حسان وشاعريته " حدثنا عبد الملك بن شعيب بن الليث حدثني .. عن عائشة أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال : " اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل" فأرسل إلى ابن رواحة فقال : " اهجهم" فهجاهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان ابن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان : قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، فقال : والذي بعثك بالحق : لأفرينهم بلساني فري الأديم، فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لا

---

(١) راجع : صحصح مسلم، بشرح النووي، للإمام محي الدين النووي مراجعة وضبط د . محمد محمد تامر ج ٨ من ص ٢٦١ : ص ٢٦٧، أرقام الأحاديث من (٢٤٨٥ : ٢٤٩٠) أرقام جانبية من (١٥١ إلى ١٥٧) ط / دار الفجر للتراث، مصر، سنة ١٩٩٩م .

تعجل، فأن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتى يخلّص .. لك نسبي " فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله : قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق .. الخ الحديث، وقالت عائشة : " سمعت رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يقول : " هجاهم حسان فشفى واستشفى " قال حسان :

هجوت محمداً فأجبت عنه ∴ وعند الله في ذاك الجزاء

ويذكر كثيراً من أبيات القصيدة، ثم يشرح هذه الأحاديث وغيرها مما ورد في فضائله وشاعريته ـــ رضي الله عنه ـــ ثم يذكر حكم سب وهجاء المشركين، ولا نتعرض لمثل هذه القضايا حتى لا نطيل [1] .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة لابن حجر جاء في حديثه عن حسان وترجمته شيء من هذه الأخبار السابقة التي تتعلق بشاعرية حسان وفضائله، ولماذا كان شاعر الإسلام الأول دون غيره من بقية الشعراء، فبعد أن ذكر ترجمته، ذكر ما قالته عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ في وصف رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وذكرت شعراً لحسان بن ثابت في ذلك :

متى يبد في الداجي البهيم جبينه ∴ الأبيات [2] .

ويروى كثيراً من الأخبار والأحاديث التي تتعلق بهذه القضية المشار إليها، ويذكر أن المشركين استخدموا الشعر كسلاح، وكان من شعرائهم : " عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب ... فقال قائل لعلي بن أبي طالب : اهج عنا القوم الذين يهجوننا، فقال : إن أذن لي رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فعلت، فقالوا : يا رسول الله ائذن له، فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : " إن علياً ليس

---

(١) راجع : صحصح مسلم، بشرح النووي، للإمام محي الدين النووي مراجعة وضبط د . محمد محمد تامر ج ٨ من ص ٢٦١ : ص ٢٦٧، أرقام الأحاديث من (٢٤٨٥ : ٢٤٩٠) أرقام جانبة من (١٥١ إلى ١٥٧) ط / دار الفجر للتراث، مصر، سنة ١٩٩٩م .

(٢) الديوان ص ٦٧، الاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة من ص ٧٤١ : ص ٧٤٤، برقم (٥٢٥) ط / دار الغد .

عنده ما يراد في ذلك منه، أو : ليس في ذلك هنالك "، ثم قال : ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم فقال حسان أنا لها .... ويذكر ما جاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري السابق، ويذكر أيضاً هنا قول الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لحسان " كيف تهجو أبا سفيان.. وهو ابن عمي، فقال : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، فقال : إيت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك ..... الخ .

فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا : إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة .. ويذكر عدة أبيات منها :

وإن سنام المجد من آل هـــــاشم
بنو بنت مخزوم والدك العبـــــد
ومن ولدت أبناء زهرة منهـــــم
كرام ولم يقرب عجائزك المجـــــد
ولست كعباس ولا كابن أمـــــه
ولكن لئيم لا تقام له زنـــــد [1]

إلى آخر هذه الأبيات، والتي سوف يكون لنا معها لقاء، في غير هذا الموضع من هذا البحث .

ويتابع ابن عبد البر حديثه عن حسان وشاعريته، فيذكر أيضاً عدة أبيات في هجائه لأبي سفيان ثم يذكر عن شاعريته أيضاً قوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ (إن قوله فيهم أشد من وقع النبل) .

ثم ينقل عن أبي عبيدة، ما رواه عنه ابن دريد عن شاعرية حسان ؛ ولماذا فضل عن غيره من بقية الشعراء، وأنه كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في الإسلام، وشاعر اليمن كلها، وأنه أشعر أهل المدر، وأيضاً " هو شاعر أهل القرى " وعن أبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء أنهما قالا " حسان ابن ثابت أشعر أهل الحضر،

(١) راجع الأبيات ص ٩٩ في ديوان حسان بن ثابت، وقد كان جهاد حسان في سبيل الله لا يقل عن جهاد غيره من الفرسان .

وقال الأصمعي " حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء " .... إلخ [1] .

وكذلك جاء عن شاعرية حسان بن ثابت، وعن مكانته الكبيرة عند الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وعند المسلمين، في كثير من الكتب التي ذكرت هذه القضية ؛ أو وترجمت لحسان ووقفت على بعض جوانب حياته، أضف إلى ما ذكرناه من كتب الصحاح، وكتب التراجم، ما جاء في كتاب الأغاني لأبي الفرج، وهو في مضمونه ومعناه لا يخرج عما ذكرناه سابقاً [2]" وأيضاً ما جاء في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي[3] .

ومن خلال هذا العرض السريع يتضح لنا أن حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ كان القائد الأول للشعراء المدافعين عن الإسلام، والذائد عن حياض الدعوة الجديدة، والحامي لأعراض المسلمين من شعراء الشرك الذين هاجموهم باللسان والسنان، لإضعافهم والتهوين من شأنهم، وقد كان شعر حسان في المشركين من أمضى الأسلحة وأفتكها، وبمثل هذه القصائد المعلنة والتي تغنى بها الناس، وكان لها أثر في نفوسهم، لأنه مؤيد بروح القدس، وقد كان هذا الجهاد من حسان ودفاعه عن الإسلام بهذا الشعر لا يقل عن جهاد غيره من الفرسان الذين حملوا السيوف والرماح ضد المشركين " وبمجرد أن اشتبكت السيوف أخذ الشعراء في الجانبين المتناقضين يسلون ألسنتهم، ولمعت أسماء شعراء كثيرين قاموا بهجاء المسلمين مثل : أبي سفيان، وابن الزبعري، وضرار بن الخطب وغيرهم وأخذوا يسددون سهام أشعارهم إلى الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فعز عليه ذلك لأنهم كانوا يصدون عن سبيل الله .. فقال للأنصار " ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم .. "[4] .

فكان حسان يعارض شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع، والأيام، والمآثر ويعيرهم بالمثالب، والعيوب، وفعل حسان هذا ـــ كما ذكرت ـــ، بتوجيه من الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ولم

---

(١) راجع الاستيعاب في معرفة الصحاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة لابن حجر ج ١ . من ص ٧٤٤ : ص ٧٦٢ ورقم هذه الترجمة من بدايتها رقم (٥٢٥) . ط دار الغد بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد . بدون تاريخ .

(٢) راجع الأغاني لأبي الفرج ص ٤ ص ١٣٨ وما بعدها، ط دار الكتب و ص ١٤٣ وما بعدها .

(٣) راجع : العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلس ج ٥ ص ٢٧ وما بعدها بتحقيق : أحمد أمين وآخر بن ط لجنة التأليف .

(٤) راجع العصر الإسلامي د . شوقي ضيف ص ٤٦ وما بعدها .

يكن من تلقاء نفسه وهجا قريشاً عن بصيرة حين غلبت على هجائه هذا، صورة الهجاء القديم، لأنها هي التي كانت تؤذي نفوس القرشيين المكيين، ولو رماهم بالشرك والكفر والضلال لم يكن لهجائه أثر في ذلك الوقت، لأن البعد عن الدين الإسلامي الجديد واعتناق عبادة الأوثان تلك كانت عقيدتهم وكانوا يعتزون بها أيما اعتزاز لأنها دين الآباء والأجداد كما يزعمون، ومن ثم اتجه حسان هذه الوجهة فطعن في الأحساب والأنساب وعيَّر سادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب، وتوعدهم بالبلاء المستطير" (١) .

وكان لهذا أثره الكبير والفعال على نفوس القرشيين دون أن يثير ذلك موطن غضب في رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أو يبعث في نفسه ضيقاً عندما يهجو من هم أقرب الناس إليه من قريش، فلقد قال ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : " شن الغطاريف على بني عبد مناف، فوالله لشعرك هذا أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام، وتحفظ بيتي فيهم، فقال : والذي بعثك بالحق نبياً لأسلنك منهم سلّ الشعرة من العجين، ثم أجرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه وقال : والله يا رسول الله إنه ليخيل إليّ أنه لو وضعته على حجر لفلقه، أو على شعر لحلقه، فقال النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : أيد الله حساناً في هجوه بروح القدس " (٢) .

ومن هنا كانت الدوافع قوية لدى حسان ليخوض هذه المعركة الحامية الوطيس، بل يصبح القائد الأول للشعراء المدافعين عن الإسلام وعن رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ والذائد عن حياض الدعوة والحامي لأعراض المسلمين من شعراء الشرك وألسنتهم، فكان شعره من أقوى الأسلحة وأفتكها، فصب على قريش هذا الهجاء المقذع ووقف لهم بالمرصاد يحصي جرائمهم، ويسجل مخازيهم، ويرد عليهم أكاذيبهم، ويبين لهم فضائل الدين، ويبغض إليهم طريق الجاهلية ونعرة العصبية .

---

(١) العصر الإسلامي نفسه، د . شوقي ضيف ص ٥٠ بتصرف .

(٢) راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٥ ص ٢٧٨، أحمد أمين .

المبحث الثاني

نماذج من هجاء حسان للمشركين

أنحنا فيما سبق أن الإسلام جعل الشعر سلاحاً فعالاً من الأسلحة التي سخرها في معركته ضد الكفر، ورأى فيها لوناً من ألوان القوة التي أمر المسلمين بإعدادها لمن حاربهم، وأدرك حسان مهمته التي عليه أن يؤديها، وغدا شعره جندياً من جنود الحق، يؤجج النفوس، ويستثير الهمم، ويذود عن الدين، وذكرنا شيئاً عما قاله الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في حسان وشعره، وأنه كان على قريش " أشد من رشق النبل "، وأن حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ كان مؤيداً بروح القدس، لأنه كان ينافح عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأدرك حسان، أن شعره سيكون له الأثر القوي والفعال على نفوس هؤلاء، وسيبلغ في أذاهم مبلغاً عظيماً حين قال : " والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم " .

وهنا يتضح أن هجاء المشركين لم يكن هامشياً في ميدان الجهاد في سبيل الله، ولكنه صورة من صوره القوية الفعالة والمؤثرة، ولأن العرب انقسموا إلى حزبين كبيرين مسلم ومشرك، وتعصب كل فريق لحزبه تعصبهم للقبيلة أو أشد، وقع بينهم ما يقع بين الأحزاب في الدنيا من تنافر وتسابق وتنافس، وأخذ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدفع أعوانه، ويدعو شعراءه إلى الدخول في هذه الحرب الكلامية الجديدة انتصاراً للمثل العليا ودفاعاً عن المبادئ السامية، وترسيخاً لمبادئ الدين، فاجتمع حوله رجال وقفوا معه حتى النهاية، وفيهم شعراء، وعلى رأسهم حسان بن ثابت ينضوون تحت لواء قائدهم العظيم ورسولهم الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصدرون عن أوامره وينفذون تعاليمه، وقد جمع الفريق الآخر شتاته، ودفع شعراءه أولاً، فوقع حجاج وكلام، ونقاش في الهجاء، فتلاحم القتال، وكثر هذا الهجاء، حتى قال شاعرنا، يصف هذه الحال :

لنـــا في كل يوم مـــن معد ∴ ســـباب أو قتـــال أو هجـــاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ∴ ونضرب حين تختلط الدماء[1]

(١) راجع الديوان ص ٢٠ .

فكان الشعر يحمي أعراض المسلمين من هجوم خصومهم باللسان، والسيوف والرماح تحميها بالطعان والضراب، فكانت معركة سياسية دينية تؤثر في النصر النهائي، وتصنع في المحاربين كما تصنع السيوف سواء بسواء " بل هي كصحافة العصر ودعايته تحمل من أعباء القتال ما تحمل الجيوش المحاربة، وقد أسرف الشعراء المشركون في التحريض على النبي وأعوانه حتى أهدر النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ دم بعض الهجائين منهم دفاعاً للعنف، وحماية من الفضيحة ... [1] ثم عفا عن بعضهم بعد أن دخل في الإسلام وحسن إسلامه كأبي سفيان، وكعب، وقد كان حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ فارس هذه المعارك بلا منازع حتى قال عن نفسه في ذلك عندما أذن له الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في قيادة تلك المعركة اللسانية " .. أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرني به مقول بين بصري وصنعاء .. " [2] ولا نطيل أكثر من هذا .

ولنذكر نماذج لما قاله حسان ـــ رضي الله عنه ـــ في خوضه لتلك المعركة .

وأول شعر قاله حسان فيها، كما ورد في سيرة ابن هشام، هو رده على شاعر قريش " ضرار بن الخطاب بن مرداس، أخو بني محارب بن فهر، وذلك في قصة إسلام سعد بن عبادة، وأصحاب بيعة العقبة الثانية " قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أبيّ بن سلول فقالوا له مثل.. إلى أن يروى قوله " فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيباً .. " إلى أن يذكر أنهم ظفروا بسعد وكادوا أن يقتلوه، لولا أن أجاره منهم " جبير بن المطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية، وكان سعد بن عبادة يجير لهما فتغنى ضرار بن الخطاب، وقال هاجياً للمسلمين شامتاً فيهم :

تداركت سعداً عنوة فأخذته ∴ وكان شفاء لو تداركت منذرا

ولو نلته طلت هناك جراحه ∴ وكان حرّياً أن يهان ويهدرا

قال ابن إسحاق : فأجابه حسان بن ثابت فيهما فقال :

---

(١) الهجاء بقلم د . سامي الدهان ص ٧٩، ٨٠، ط / دار المعارف .

(٢) راجع : الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة ج ١ ص ٧٤٥، ٧٤٦ وما بعدها، ط / دار الغد .

لست إلى سعد ولا المرء منذر .·. إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا
فلولا أبو وهب لمرت قصائد .·. على شرف البرقاء يهوين حسرا

ويذكر ابن هشام بقية هذه الأبيات ... " (١).

وجاء في شعر المخضرمين عن أول ما قاله حسان من شعر في الإسلام " .. وأول مناوشة بدأها حسان في سبيل الدين الإسلامي كانت رده على ضرار بن الخطاب بن مرداس ـــ شاعر قريش وفارسها ـــ حين قال ضرار :

تداركت سعداً ... ويذكر الأبيات السابقة " ثم يلخص مناسبة هذه الأبيات وهي كما نقلنا عن سيرة ابن هشام تتعلق بأصحاب العقبة الثانية، ثم يذكر أبيات حسان وأولها :

" لست إلى سعد ولا المرء منذر .·. الخ .... " (٢)

فهذه أول أبيات قالها حسان في دفاعه عن الإسلام ووقوفه في وجه أعدائه بمثل تلك الشاعرية القوية، واللسان الحاد المؤيد بروح القدس من الله ـــ تعالى ـــ وسأنقل هذه الأبيات من الديوان لنكون النموذج الأول من هجاء حسان للمشركين، وقد صدر هذه الأبيات ناشر الديوان بقوله : " وقال رضي الله عنه يجيب رجلاً من قريش في أسرهم سعد بن عبادة حين بايعوا النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ، يوم الاثنى عشر نقيباً فطالبوهم، فلحقوا سعداً وفاتهم المنذر بن عمرو، فأسروا سعداً وضربوه، حتى خلصه منهم أمية بن خلف والحارث بن هشام، فقال القرشي [من الطويل]، وهو يعني ضرار بن الخطاب " تداركت سعداً، ويذكر البيتين السابقين .. ، ثم يقول : فقال حسان ـــ رضي الله عنه ـــ يجيبه وهو أول شعر في الإسلام، من [الطويل] :

لست إلى عمرو ولا المرء منـــــذر

---

(١) راجع القصة كاملة والأبيات في السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ج٢ ص٤٧١ : ٤٧٤، ط / دار الفكر .

(٢) شعر المخضرين ـ يحي الحسيوري، صـ ٦٥ وما بعدها .

إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمـــــرا
ولولا أبو وهب لمرت قصـــــائد
على شرف البرقاء يهوين حســـرا
فإنا ومن يهدي القصائد نحونـــــا
كمستبضع تمراً إلى أهل خـــــيبرا
فلا تك كالوسنان يحلم أنـــــــه
بقرية كسرى أو بقرية قيصـــــــرا
ولا تك كالشاة التي كان حتفهـــــا
بحفر ذراعيها فلم ترض محفـــــرا
أتفخر بالكتان لما لبســـــــــته
وقد يلبس الأنباط ريطاً مقصـــرا (١)

وكما سبق أن أشرنا، كانت هذه الأبيات أول لقاء شعري وفكري بين حسان وخصوم الإسلام، والتي كانت رداً على ما قاله شاعر قريش ضرار بن الخطاب، والذي هيج مشاعر حسان وأطلق غيرته الدينية وعصبيته للإسلام، فتوجه إليه بالرد المفحم والذي ألجمه وأخرس لسانه، فحط من قدره وقدر قومه، وقلل من شأنهم، وهون من مكانتهم، عندما صورهم بمثل هذه الصور المضحكة المشينة فهم مثلاً : كالشاة التي تحفر بذراعيها لتخرج ما تذبح به، أو بصورة الذئب الذي يعوي لينبه قاتليه ليصوبوا إليه سلاحهم فيلاقي حتفه في مكمنه، وأرى أن ناشر هذه الطبعة من الديوان، قد أخطأ في هذه القصة، عندما أثبت أن الذي خلص سعد بن عبادة من الأسر هما : أمية بن خلف، والحارث ابن هشام، ولكن الصحيح أنهما : جبير بن المطعم بن عدي، والآخر هو : الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، لأنه كان يجير لهما .. كما سبق (٢) .

كانت هذه البداية لهجاء حسان للمشركين، إنها الغيرة القوية على الإسلام والمسلمين، حتى لا تنتهك الحرمات، وليعلم الأعداء أن المسلمين يملكون القوة اللسانية والكلمة القاتلة التي يستخدمونها في الوقت المناسب، فيكفوا عن حربهم بهذا السلاح، ويخيب أملهم في النصر عليهم .

---

(١) راجع : ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه وقدم له : الأستاذ / عبد أ . مهنا، من ص ١١٥ : ١١٧، وراجع حسان بن ثابت، د . سيد حنفي ص ٣٠٨، ١٥٤، وحسان بن ثابت : إحسان النص ص ١٨٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ج ٢ ص ٤٧٢ وما بعدها .

وقد كانت مهمة حسان بن ثابت شاقة وصعبة في الرد على خصوم الإسلام، لأن سهامهم أمطرت على الدعوة من كل مكان، والقبائل تتحفز للانقضاض على الدعوة الإسلامية، وتتآمر مع اليهود، وكذلك جَمْع المنافقين الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين، ويدسون الفتن كما يشعلوها ناراً حامية، ويذكون جذوة العداء للإسلام بالتخفي تحت ستاره، وهم بعيدون كل البعد عنه وعن تعاليمه وآدابه .

ومن ثم لم يدخر حسان بن ثابت وسعاً في هجائه لهؤلاء جميعاً، ولم يترك لحظة واحدة تمر إلا واستغلها في تقريعهم وتجريدهم من القيم والفضائل والسخرية بهم، والطعن في أنسابهم وتناول أمهاتهم، واغتنم كل فرصة سانحة للنفاذ إلى قلب أعداء الإسلام، وأكثر ما رماهم به كما سوف يتضح ــ اللؤم لأن العرب كانت تكره هذه الصفة في الرجل أو القبيلة، وكانت تنصب له في الأسواق بيتاً وتقول : هذه عذرة فلان، ويشتمل اللؤم على البخل والخسة والخبث والضعة، وكان ينفي القبيلة من نسبها الذي تعتز به، يعكس كلمة المروءة التي تحمل " عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة، وطلب الثأر، وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء حتى يخلص القبيلة وأشرافها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها ... "[1]، وهذا ما فعله حسان عندما تعرض لهجاء المشركين .

وأول ما لفت نظري في هجاء حسان للمشركين، هجاء الفرد، ويتمثل في هذا الهجاء المقذع الذي وجهه إلى أبي سفيان [2] قبل أن يسلم، فقد تعددت موضوعاته وتنوعت أساليبه وكان شديداً لاذعاً يتناسب ومكانة هذا الرجل ــ قبل أن يسلم ــ في صفوف المشركين، فهو شاعرهم وسيدهم، فلابد أن يتناوله حسان بمثل هذا الهجاء المقذع، فماذا قال حسان في هذا الفارس العنيد ؟ وما أهم الموضوعات التي تناولها في هجائه ؟ هذا ما تجيب عنه هذه السطور .

ونبدأ هذا الهجاء بتلك الأبيات التي جاءت في هذه القصيدة والتي تعد من أروع ما قاله

---

(١) راجع العصر الجاهلي د . شوقي ضيف ص ٢٠١، ط / دار المعارف بمصر .

(٢) والمقصود بأبي سفيان هنا هو : المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هشام، أبو سفيان الهاشمي القرشي أحد الأبطال الشعراء في الجاهلية والإسلام، وهو أخو رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الرضاع، كان يألفه في صباهما .. ولما ظهرت الدعوة عاداه المغيرة وهجاه وهجا أصحابه، ثم أسلم وحسن إسلامه، مات بالمدينة سنة ٢٠ هـ وصلى عليه عمر بن الخطاب وهو غير أبي سفيان بن حرب .

حسان والتي روتها كتب السير، وكذلك كتب الصحاح والأسانيد الصحيحة، وهي الهمزية، ونذكر منها ما هجا به حسان أبا سفيان، قال : كما جاء في صحيح مسلم بشرح النووي :

هجوت محمداً فأجبت عنه ∴ وعنـد الله في ذاك الجزاء
هجوت محمـداً براً حنيفاً ∴ رسـول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضـي ∴ لعـرض محمـد منكم وقاء
ثكلت بنتي إن لـم تروهـا ∴ تثير النقـع من كنفي كداء
يبارين الأعنة مصعـدات ∴ على أكتافها والأسل الظماء

إلى أن يقول :

لنا في كل يـوم مـن معد ∴ سـباب أو قتـال أو هجاء
فمن يهجو رسول الله منكم ∴ ويمدحه وينصـره سواء
وجبريل رسـول الله فينا ∴ وروح القدس ليس له كفاء

ثم يذكر : (باب فضائل حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ)، ولكن نأخذ على الشارح هذه الرواية التي أثبتها هنا وهي قوله " ثكلت بنيتي .. " والصحيح كما جاء في كثير من المصادر، وكذلك الديوان قوله : " عدمنا خيلنا " ليتناسب السياق والمعنى، لأن البيت الذي يليه هو " يبارين الأعنة مصعدات والكلام هنا على الخيل القوية، ويعلق الشارح على بعض هذه الألفاظ قائلاً : " يبارين الأعنة " ويروي : (يبارعن الأعنة) قال القاضي : الأول هو رواية الأكثرين ومعناه : أنها لصرامتها وقوة نفوسها تضاهي أعنتها بقوة جذبها لها .. وفي رواية (يبارين الأسنة) وهي : الرماح .. وقوله (على أكتافها الأسل الظماء) .. الأسل الرماح، والظماء الرقاق، فكأنها لقلة مائها عطاش أو المراد بالظماء : العطاش لدماء القتلى، وفي بعض الروايات : (الأسد الظماء) بالدال، أي : الرجال المشبهون بالأسد العطاش إلى دمائكم .. قوله : تلطمهن بالخمر النساء : أي تمسحهن النساء بخمرهن، وربما فسره الشارح تفسيراً لا يليق بالمعنى المراد ... " [1] .

(١) راجع : صحيح مسلم بشرح النووي، راجع ضبطه د . محمد محمد تامر ج . ص ٢٦٣ : ٢٦٨

وبالرجوع إلى هذه الأبيات في الديوان، وجدتها في أول قصيدة صدر بها شارح الديوان، شعر حسان، وقد عدها البعض من عيون شعر حسان، وجيده، وأطلق عليها قصيدة الفتح، لأنها قيلت كبشارة لفتح مكة، وشاعرنا كان له في كل موقف من مواقف المسلمين قصيدة أو قصائد، ومن جياد قصائده التي كان لها أبعد الأثر، وأحسن الذكر عند المسلمين قصيدة الفتح : سنة ثمان وهي " [1] .

عفت ذات الأصابع فالجواء ∴ إلى عذراء منزلها خلاء [2]

وكما نرى " مطلعها جاهلي، يتذكر أيامه الأولى عند الغساسنة بالشام، وما كان له من لهو وشراب، والجزء الإسلامي من هذه القصيدة هو الذي سما بحسان، سمواً لم يلحقه شاعر إسلامي آخر .. " [3] .

ونستطيع أن نتعرف على شعر حسان وهجائه اللاذع لأبي سفيان ابن الحارث وغيره من خلال هذه القصيدة الرائعة، حيث ينص على ذلك الهجاء، ويسمى أبا سفيان باسمه، ثم يهجوه هجاءاً مراً .. قال فيها [4] :

فنحكم بالقوافي من هجانا ∴ ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفـيان عني ∴ مغلغلة فقـد برح الخفـاء
بأن سيوفنـا تركتك عبداً ∴ وعبد الدار سادتهـا الإماء

ثم يذكر الأبيات السابقة (هجوت محمداً ..) إلى أن يختتم هذه القصيدة بقوله :

---

(١) راجع شعر المخضرمين ص ٦٩، د . يحيى الجبوري، نقلاً عن السيرة ق ٢ ص ٤٢١ : ٤٢٤، وراجع القصيدة في الديوان ص ١٩ : ٢٢ .

(٢) الديوان ص ١٧ وما بعدها .

(٣) شعر المخضرمين يحيى الجبوري، ص ٧٠ .

(٤) نفسه ص ١٥٥ وما بعدها .

لساني صارم لا عيب فيه ∴ وبحري لا تكدره الدلاء [1]

وكما سبق أن أشرت فهذه القصيدة كانت مقدمة ومبشرة بفتح مكة، وقد كان .. وقيل في ذلك شعر، وأهم وأجود ذلك الشعر همزية حسان بن ثابت .. عفت ذات الأصابع .. " [2] .

وهي من خير قصائد حسان التي قالها في الإسلام، وبدأها ـــ كما مر ـــ بذكر مواضع شامية وفيها أبيات في ذكر الخمر، وهذا ما يلفت النظر ويثير التساؤل، فما بال حسان يعود لذكريات جاهلية ؟ وما باله يتغنى ويحن إلى الخمرة التي حرّمها الإسلام ؟ وكل ذلك في مناسبة انتصار الإسلام في يوم له جلاله الديني، وكما يقول بعض الدارسين والعلماء، ومنهم السهيلي في الروض الأنف، والأستاذ/ خلف الله محمد أحمد وغيرهما، أن هذا المطلع الجاهلي وتلك الذكريات القديمة التي كانت قبل الإسلام، وكذلك وصف الخمرة التي حرمها الشرع، كان مما قاله حسان في الجاهلية، ثم نظم في الفتح هذه الأبيات التي تبدأ بقوله :

عدمنا خلينا إن لم تروها ∴ تثير النقع موعدها كداء

ثم رأى الرواة اتفاق القصيدتين في البحر والقافية فظنوهما واحدة فرويت بالشكل الذي أثبت في ديوانه، ومما يرجح هذا الغرض، ما روى : أن حساناً مرّ بفتية يشربون الخمر في الإسلام فنهاهم فقالوا : والله لقد أردنا تركها فيزينها لنا قولك :

" ونشربها فتركنا ملوكاً ∴ وأسداً ما ينهنهنا اللقاء "

فقال : والله لقد قلتها في الجاهلية، وما شربتها منذ أسلمت "، ويعقب السهيلي على هذا بقوله : " وكذلك قيل : إن بعض هذه القصيدة قالها في الجاهلية، وقال آخرها في الإسلام " [3] .

---

(١) الديوان ص ٢٠، ٢١ .

(٢) السيرة ق ٢ ص ٤٢١ .

(٣) راجع في ذلك الروض الأنف للسهيلي ج ٢ ص ٢٨١، ودراسات في الأدب الإسلامي للأستاذ / خلف الله محمد أحمد ص ٥٧، وراجع الاستيعاب على هامش الإصابة ج ١ ص ٣٧٤ وما بعدها .

الصور المزرية المشينة ومنها : الجبن والفرار، فقد أرسل إليه رسالة يصفه فيها بأنه : "جبان ضعيف " مجوف ومثله " النخب .. الجبان، إنه يعلن الحرب عليه ووسع نطاق التشهير به ليكشف حقيقته، ويذيع مخازيه على كل لسان، إنها رسالة فاضحة يتناقلها الركبان، من مكان إلى مكان، مسجل فيها فراره يوم بدر أمام أبطال المسلمين ثم عيره بتوبه الذين خارت قواهم في تلك الحرب حتى وصل الأمر إلى أن يحمل فيها اللواء عبد منهم يدعي صواب، بعد أن انتشلته امرأة منهم من الأرض .. وهذا الذل والعار ليس في شخصه فحسب بل هو شأن من ينتمي إليهم " عبد الدار " فهم سادتهم النساء وتملك أمرهم الإماء .. فانظر مدى هذه القسوة على نفس العربي الذي كان يعتز بقوته وبحريته وأن المرأة في نظره تعد من سقط المتاع .

فهنا نجد المعاني الجاهلية في شعره الإسلامي، وهذا يدل على عنف الصراع وشدته بين المسلمين والمشركين، وقد كان تعبير حسان لهم بتلك الصورة " عبد الدار سادتها الإماء "، أشد من سلب الفضائل الإنسانية والدينية، لأن هذا أهم قيمة تحيي لها هامة العربي إذا ما وصف بأنه تحكمه امرأة، أو صار عبداً لها، وهذا ما فرضته الحياة الجاهلية المتمثلة في الفقر والإجداب والبؤس فهنا تحمد الشجاعة والوفاء والكرم، وجعلت الجبن والخيانة، والضعف موضع ذم وازدراء واحتقار .. وبهذا اختار حسان الموضوعات المؤثرة على النفوس تأثيراً قوياً، ليصيب منها مقتلاً في خصومه، وعرض فيها للأنساب والأعراض والأخلاق ليبرز هذا المهجو في شكل مخزٍ ويضعه موضع السخرية والضعة والانحطاط فإذا بلغ الشاعر من ذلك ما يريد انتصر هجاؤه وأجهز على خصمه واشتهر بين الأقوام وارتفع إلى ذروة الأدب " [1] .

ومما قاله حسان في هجاء أبي سفيان بن الحارث، وكان له أثره البالغ :

لقد علم الأقوام أن ابن هـــــاشم
هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد

(١) راجع الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص١٠٠، وما بعدها، د. محمد حسين (بتصرف).

ومالك فيهم محتـــــد يعرفونـــــــه
فدونك فالصق مثل ما لصق القـــــرد

وإن سنام المجد من آل هـــــــاشم
بنو بنت مخزوم ووالدك العبـــــــد

وما ولدت أفناء زهرة منـــــــكم
كريماً ولم يقرب عجائزك المجـــــد

ولست كعبـــــاس ولا كابن أمـــــه
ولكن هجين ليس يوري به زنـــــد

وأنت زنيم نيط في آل هـــــــاشم
كما نيط خلف الراكب القدح الفـــرد

وإن امرأ كانت سمية أمـــــــــــه
وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهـــد [1]

ويعلق جامع الديوان قائلاً ــ بعد هذه الأبيات ــ : " فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال : هذا شعر لم يغب عنه ابن أبي قحافة " يعني أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ [2] .

فهو هنا " حين يهجو أبا سفيان يصمه بما كان يصم الجاهليون خصومهم كذلك، فيجعله دعياً نيط في آل هاشم، ويقول إنه هجين ليس يوري له زند، وبهذا ألجم حسان أبا سفيان ونكل به بتلك الصورة الساخرة وهذا الوصف المشين الذي حط من قدره، والمقصود بأبي سفيان هنا " هو

(١) راجع الديوان ص ٩٩ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ٩٩، ١٠٠ .

أبو سفيان الهاشمي بن الحارث ، توفى سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م [١] وتظهر عبقرية حسان عندما أخرجه من قريش وجعله دعياً فيها، فهو يقول إن : الأقوام تعلم أن ابن هاشم الحقيقي هو الغصن اليانع صاحب الأفنان وليس الوغد الحقير مثلك، ثم ينفيه من أصله قائلاً: " ومالك في هاشم أو قريش " محتد " أصل كريم أو عمل جسيم تذكر به فيهم فالزم الخزي والذل مثل تلك الحشرة الحقيرة التي تلتصق بجسم الإنسان تمص دمه وتعيش لتؤذيه، وإن المجد الحقيقي وأعلاه هو في آل هاشم وهم الذين ينتمون إلى بنت مخزوم وهي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم، أما أنتم فلم يأت من أصلكم كريماً ولكنكم ضيعتم هذا النسب .

ثم أخذ يفاضل بينه وبين بني عمومته مثل العباس، أو حمزة وضرار، فيقول : ولكنك هجين أبوك عربي وأمك غير محصنة وفوق ذلك أنت بخيل، ومن العجيب أن تكون هذه الأبيات تحت عنوان : " الهجين " [٢] فأنت زنيم ومستلحق في قوم لست منهم، ولا يحتاج إليك، فأنت فيهم نبتة شر، وقد أكثر حسان من هذا النمط الهجائي كثرة مفرطة، وبخاصة الذي يوجهه إلى أفراد، كان لهم اليد الطولى في عدائهم للإسلام، وقذف المسلمين وسبهم، فتوجه حسان إلى هؤلاء فألهبهم بهجائه المقذع الفاحش، وحط من شأنهم وسفه أحلامهم، وسبهم بأنكى الألفاظ، وأقبح الصفات التي تبقى على طول الدهر ولا تبلى، وقد أفاض حسان بمثل هذا الهجاء لانطباعه عليه ولتمرسه له منذ جاهليته ولطول لسانه الذي أخرجه عندما طلب منه الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ذلك فقال : " إنه ليخيل لي أني لو وضعته على حجر لفلقه، أو على شعر لحلقه " ـــ كما مر ـــ [٣] .

---

(١) ترجمته : هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هشام، أبو سفيان الهاشمي القرشي أحد الأبطال الشعراء في الجاهلية والإسلام وهو أخو الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من الرضاع، ولما أظهر النبي الدعوة إلى الإسلام عاداه المغيرة وهجاه وهجا أصحابه، ثم أسلم ورضي عنه النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ثم كان من أخصائه، له شعر كثير في الجاهلية هجاء بالإسلام، وشعر كثير في الإسلام هجاء بالمشركين، مات بالمدينة سنة ٢٠ هـ وصلى عليه عمر ـــ راجع الأعلام للزركلي ج ٧ ص ٢٧٦– وقد مرت ترجمته .

(٢) الهجاء د . محمد سامي الدهان ص ٧٣ ط / دار المعارف، مصر .

(٣) راجع : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٩٤، تحقيق أحمد أمين طبع ١٩٤٦ م، وراجع : صحيح مسلم بشرح النووي ج ٨ ص ٢٦٤ و ٢٦٥ وما بعدها .

ومن ثم كان حسان ذا بصيرة نافذة بالثغرات التي تصيب الإحشاء من المهجو، وكانت له رؤية خاصة عندما ينتقد، ويثلب مهجوه، ويلحق به الخزي والعار على مر الأيام، وقد غلبت عليه الدعابة التي تغري الناس بروايته والتندر به، وهي شيء موهوب غير مكتسب فهي مركبة في طباع الهجائيين المطبوعين الذين لا يقعون على شيء حتى تتدفق عليهم ألواناً من الصور الفكهة والأخيلة الساخرة التي تسعفهم بها البديهة، وهي خاصة لا تَدُرْ على التفكير وإعمال العقل وكد المخيلة، فالصورة تلمح في ذهن الهجاء الساخر الفطن فتسعفه بالنكتة الصائبة بمجرد وقوع عينه، أو إخباره بموضوع هجائه أو تخيله له، مثل شاعرنا .

وجاء في الاستيعاب " لابن عبد البر " وقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ " كيف تهجوهم وأنا منهم وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي " فقال والله .... الخ فكان يقول له : كف عن فلانة وفلانة، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا : إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة .. ومن شعر حسان في أبي سفيان بن الحارث قوله .... ويذكر الأبيات من أول [وإن سنام المجد من آل هاشم ..] .

قال أبو عمرو: معنى بقوله بنت مخزوم" فاطمة بنت عمرو .. فيما ذكر أهل النسب وهي أم أبي طالب، وعبد الله، والزبير بن عبد المطلب " وقوله " ومن ولدت أبناء زهرة " يعني حمزة وصفية أمهما هالة بنت وهب .. وسمية أم أبي سفيان هذا، وسمراء أم أبيه " فهذا سب لأبي سفيان لأن سمية هذه بنت موهب، وهو غلام لبني عبد مناف، وكذا أم أبي سفيان كانت كذلك .. " [1] .

ومن هنا نرى أن مثل اتجاه حسان في هذا الهجاء كان يعتمد على ما كان شائعاً في الجاهلية، فهو يتكئ على قواعدها وأعرافها وامتداداً لنهجها، فاعتمد على الأنساب والأحساب والعصبية القبلية، وذم الجبن وكشف العورات والمثالب الفاضحة، وكل هذه الأشياء التي ذكرها

(١) راجع : الاستيعاب لابن عبد البر ج ١ ص ٧٥٠، وما بعدها ـــ على هامش الإصابة ج١، صحيح مسلم بشرح النووي ج ٨ ص ٢٦٤، مرجع سابق، والمقصود بأبي سفيان هنا هو : المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب " أبو سفيان بن الحارث الهاشمي " تقدمت ترجمته .

كانت مناط الشرف والسيادة عند العرب، وموئل العزة والكرامة، وأن الواحد منهم يضار كثيراً، ويغضب لها أكثر من غضبه للدين .

وقد فهم حسان ذلك وأدركه جيداً، لأنه عاش زمناً غير قليل في الجاهلية، وظهر فيه نشاطه الشعري، فاستقامت أساليبه وتم نضجها، أضف إلى ذلك أن المشرك منهم قبل أن يسلم ويدخل في دين الإسلام كان يفتخر بأنه ما زال على دين آبائه وأجداده، فإذا ما هجاه حسان بالكفر، أو الضلال، والبعد عن الإسلام ؛ فهذا يعتبر بالنسبة للمشرك كالمديح له .

وفي هذا السياق يذكر حسان هذه الأبيات يجهو بها أبا سفيان ابن الحارث تحت عنوان " لست من الأكرمين " :

لست مـــن المعشر الأكرمـ
ـين لا عبد شمس ولا نـــوفل

وليس أبـــوك بساقي الحجـ
ـيج فاقعد على الحســـب الأرذل

ولكن هجـــين منوط بهـــم
كما نوطت حلقـــة المحمـــل

تجيش من اللـؤم أحســـابكم
كجيش المشاشة في المرجـــل

فلو كنت من هـــاشم في الصمـ
ـيم لم تهجنـــا وركي مصطلي [1]

وعلى هذه الشاكلة يسير حسان في هجائه لأبي سفيان على نهج متقارب لا تخلخل فيه ولا

(١) الديوان ص ٢٠٥ .

اضطراب من إيثار هجائه بالطعن في سبه ونفيه من الأكرمين، وعدم انتمائه إلى الشريفات من قريش، وقد نفى نسبه في هذه الأبيات، من عبد شمس أو نوفل هذا من جهة أمه، أما والده فلم يكن له مكانة سابقة معروفة فليس ممن كانت لهم سقاية الحجيج .. وهنا يعبره بخموله وضعته بين بني هاشم وهذا يعد من أقسى الهجاء على نفس العربي الأبي في ذلك الوقت .

ومن هذا الهجاء المقذع الذي جرد فيه حسان أبا سفيان ابن الحارث من نسبه قوله :

لعمرك إن إلك من قريـــــــش
كأل السقب من رأل النعـــــــام

فإنك إن تمت إلى قريـــــــش
كذات البوجائلة المـــــــرام

وأنت منوّط بهـــم هجـــــــين
كما نيـــط السرائح بالخـــــدام

فلا تفخر بقوم لست منهـــــــم
ولا تك كاللئـــام بني هشـــام [1]

فما أقساه من هجاء، على رجل كان يعد نفسه من علية القوم، بل القائد لهم، وزعيمهم، فإذا به دعي فيهم، فنسبه وصلته بقريش مثل صلة ونسب ولد الناقة من ولد النعام، فشتان بين النوعين، وإن ادعى أبو سفيان نسباً في قريش، فهو نسب مزيف وليست له حقيقة في الواقع، وصوره بهذه الصورة الخادعة للناقة أو البقرة عندما يموت ولدها فيسلخ جلده ويحشى تبناً فيصير خيالاً تخدع به هذه الناقة أو البقرة لحلبها، فلا تفخر بمآثر قريش لأنك لست منهم، ولا وارثاً عنهم مآثرهم ومفاخرهم، مثل هؤلاء اللئام بني هشام .

(١) راجع الديوان ص ٢٤٢ .

فهذا الهجاء كان لاذعاً ومقذعاً، لأنه موجه إلى مثل أبي سفيان الذي كان حريصاً على السمعة الحسنة والصيت الذائع، فترع إلى التعلق بالشرف والأرومة، وتمسك بطيب النسب فافتخر به وأشاد بذكره، وخاف أن يأتيه من قبل هذا عار يلحق به فلن ينجو أبد الدهر، وقد عرف حسان ذلك، فطلبه في أبي سفيان في هجائه له، فعيره بأمه وجدته، ونقاه عن نسبه، فهو مرة هجين في آل هاشم، وأخرى " زيتم نيط في آل هاشم " وهذه وغيرها سباب فاضح، وقدح في العرض ليحط من قدره، ويضربه الضربة القاضية .

ولم يترك حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان [1]، ولكنه أصلاها بلسانه " سوط عذاب " وهجاها بألفاظ جارحة وقاسية، لأنها كانت ممن يؤذون الله ورسوله، فهي " أبرز شاعرات قريش وأشدهن عداءً لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه، وكانت مصيبة هند في بدر كبيرة حيث كان قد قتل أبوها وعمها شيبة، وأخوها الوليد، وكانت هند قد ذكرت قتلاها حين كاثرت الخنساء بمصيبتها، فقالت [2] :

أبكي عميد الأبطحين كليهمـــــــــا
وحاميهما من كل باغ يريدهـــــــا

أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمـــــي
وشيبة والحامي الذمار وليدهـــــا

أولئك آل المجد من آل غـــــــــالب
وفي العز منها حين ينمي عديدها [3]

---

(١) المقصود بأبي سفيان هنا (أبو سفيان بن حرب، واسمه صخر بن حرب بن أمية، وأمه صفية بنت حز من الهلالية، كان قائد المشركين قبل إسلامه .. أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً، وابنه معاوية مؤسس الدولة الأموية ــ مات أبو سفيان سنة ٣٤ هـ، وقيل في آخر خلافة عثمان .

(٢) راجع السيرة النبوية ق ص ٧٠٨ وما بعدها، وشعر المخضرمين ــ الجبوري، ص ١٧٠ وما بعدها .

(٣) راجع : السيرة النبوية ق ١ ص ٧٠٨ وما بعدها، والأبيات في الأغاني، ج ٤ ص ٢٢١ ط / الدار نقلاً عن

وشعر هند ليس هذا موضع ذكره، ولكني أردت أن أعرج على سبب هجاء حسان لها، فهي الموتورة الحاقدة، وقد وجدت شفاء غليلها في التمثيل بجثث الشهداء المسلمين ... ومن ثم ردّ عليها شاعرنا ـــ بعد أن حرضه عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عن جميع صحابة رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ حين قال : " لو سمعت ما تقول هِنْد، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا، وتذكر ما صنعت بحمزة [1] .

وكان حسان في حصنه (فارع) لم يشهد الحرب فقال من قصيدة يهجو هنداً وأبا سفيان :

أشرت لكاع وكان عادتهـــــا
لؤم إذا أشرت مع الكفـــــــر

لعن الإله وزوجهـــــا معهـــا
هند الهنود طويلة البظـــــــر

أخرجت مرقصة إلى أحـــــــد
في القوم معنقة على بـــــــكر

بكر ثقال لا حـــــراك بـــــه
لا عن معاتبة ولا زجـــــــر

: شعر المخضرمين د . يحيى الجبوري ص ١٧٠ وما بعدها .

(١) راجع السيرة ق ٢ ص ٩٢ وما بعدها، ابن عبد شمس بن مناف، كان يقول الشعر، وأكثر في الرثاء .. هند بنت عتبة بن ربيعة وزوجها صخر بن حرب المعروف بأبي سفيان، وولدها معاوية بن أبي سفيان، وقصتها في غزوة أحد معروفة، وما فعلته بأسد الله وسيد الشهداء " همزة بن عبد المطلب " لا داعي لذكرها هنا، ولكنها أسلمت وحسن إسلامها .

وعصاك إستك تتقين بـــــــه
دق العجاية عاري الفهـــــــر

قرحت عجيزتهـــا ومشرجهـــا
من نصها نصاً على القهـــــــر

ظلت تداويهـــا زميلتهـــــا
بالماء تنضحه وبالســـــــــدر

أقبـــلت زائرة مبـــــــادرة
بأبيك وابنك يوم ذي بـــــــدر

وبعمك المســـلوب بـــــزته
وأخيك منعفرين في الجفـــــــر

ونسيت فاحشة أتيت بهـــــا
يا هند ويحـــك سبة الدهـــــر

زعم الولائد أنهـــــا ولـــــدت
ولداً صغـــيراً كان من عهـــر[1]

وهذه الأبيات ــ كما نرى ــ من خلال عنوانها الذي جاءت تحته في الديوان وهو " الطويلة البظر " ويا له من تعبير شديد القسوة مقذع لاذع، خاصة إذا وجّه إلى امرأة في ذلك العصر مثل هند ؟ !!

ولست أرى أن هذا التعبير " طويلة البظر " ينطوي على السب والشتم والهجاء المقذع

(١) الديوان ص ١٣٨ وما بعدها .

فحسب، بل هو تعبير فني إبداعي يوافق منطق الانفعال، وسياقه الجاري مجرى الزراية والتحقير والتشفي، فهذا الوصف يجعلها عاهرة طالبة للرجال أكثر من المرأة البغي، وليست مطلوبة من قبلهم، أرأيت أشد قسوة على نفس الحرة من ذلك ؟ !

فهذا هجاء لاذع وأقسى على النفس من سابقه، وشديد النبرة والإباحية من قبل حسان، أما في هذين البيتين وهما :

[وعصاك استك تنقين به ... وقرحت عجيزتها ...] راجعهما [1] فإن الشاعر قد تخطى حدود التعبير المأثور ـــ من المنظور الإسلامي وقذف بصورة نابية، نافذاً فيما وراء العقل والوضوح، متوسلاً التكثيف والإيحاء جميعاً، بما لم يكد يدركه أو سواه، فهو يقول مثلاً " وعصاك استك، تتقين به، قرحت عجيزتها ـــ مشرجها " إلى آخر هذه الألفاظ التي توحي بالمعاني الداعرة مما تستثير ذوي الضمائر الغليظة، ويؤثر فيهم بالترق والحماس والتروة بدلاً من استثارة النشوة الفنية فيهم أمثال هؤلاء المشركين قبل إسلامهم .

ومن خلال هذه الأبيات التي فيها بعض القدح في الأعراض وفيها بعض الألفاظ الجنسية يمكن أن تميز بين الانفعال الحسي والعصبي والشعوري، وبين الانفعال الفني النافذ المبدع، فالأول يلازم طبائع النفس ولا يقتضي فناناً، ليستثيره، لأن النفس البشرية تنفعل به انفعالاً عصبياً مباشراً، ومثال ذلك الألفاظ الجنسية ـــ كما مر ـــ وأحداث الزنا تثير المرء أطالعها في الحياة اليومية الواقعية، أم في مثل هذه القصيدة الهجائية، فإذا ذكر أن امرأة واقعت رجلاً بالسفاح وحملت منه وأنه أقام على مواصلتها بالفجور، فإن هذه الحادثة تحمل معنى العار بذاتها، وهذا ما فعله حسان بهند فقال في آخر بيت من هذه الأبيات [2] :

ونسيت فاحشة أتيت بهـــــــا
يا هند ويحـــك سبة الدهـــــر

(١) الديوان ص ١٣٨، شرحه وكتب هوامشه وقدم له : الأستاذ عبد أ . مهنا ط / دار الكتب العلمية .
(٢) الديوان ص ١٣٩، المرجع السابق .

زعم الولائد أنهـــــا ولـــــدت
ولداً صغـــيراً كان من عهـــر

فهند هذه بغية طويلة البظر طالبة للرجال ــ تسوق حمارها بدون عصا، فعصاها استها ؟ ! ... وأخيراً أنها جاءت بولد من زنا، وسفاح، وهنا نرى أن حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ قد أغلظ القول لهند بنت عتبة ولزوجها أبي سفيان بما يتناسب وما فعلاه من أذى للمسلمين وعداوة لرسوله الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

ومن الأفراد الذين هجاهم حسان أبا جهل، الذي سبه وشتمه، وسامه سوء العذاب بهذا اللسان الطويل الذي كان أشد عليه من السنان، فقد صب عليه ألواناً من المعايب والمثالب التي تقض مضجع ذلك العربي وتجعله ينحني أمامها، ولا تقوم له قائمة بعدها، فقد جعله لئيماً، لا ينفك عن لؤمه، بل هوَّن من شأنه، وحقر من قدره، وجعله يجر أثواب الخزي والعار، واسمعه يقول في هذه الأبيات التي تحت عنوان " الدعي اللعين " :

لقد لعن الرحمـــن جمعاً يقودهم
دعي بني شجع لحرب محمـــــــد

مشوم لعين كان قدماً مبغضـــــاً
يبين فيه اللؤم من كان يهتـــــدي

فدلاهم في الغي حتى تهافتـــوا
وكان مضـــــلاً أمره غير مرشـــد

فأنزل ربي للنبي جنـــــــوده
وأيده بالنصـــر في كل مشهـــد[1]

(١) الديوان، ص ٩٣ .

فأبو جهل ملعون مطرود من رحمة الله ــ تعالى ــ وهو دعي في قريش، ولم ينسبه إلى قريش ولكنه دعي في بني شجع، مشئوم منذ القدم مكروه من قبل من يعاشره، ولؤمه ظاهر واضح، يعرفه كل من عنده بصيرة، فساقهم في الغي والضلال، وكان في أمره هذا غير راشد وعلى غير صواب وحق، ونسي أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو على حق وأنه مؤيد من بجنود من الملائكة في كل أموره الحربية والسلمية .

ومن هجائه أيضاً لأبي جهل ما قاله في هذه الأبيات تحت عنوان [أبو جهل الفاجر] :

سمـــاه معشـــره أباحكـــم ∴ والله سمـــاه أبا جهـــــل
فما يجيء الدهر معتمـــراً ∴ إلا ومرجـــل جهـــله يغـــلي
وكأنه ممـــا يجيـــش به ∴ مبدي الفجور وسورة الجهـــل
يغري بـــه سفع لعـــاظلة ∴ مثل السباع شرعن في الضحل
أبقـــت رياســـته لمعشره ∴ غضـــب الإله وذلة الأصـــل
إن ينتصر يدمي الجبين وإن ∴ يلبـــث قليـــلاً يود بالرحل[1]

إلى آخر هذه الأبيات التي ساقها الشاعر في هجائه لأبي جهل الفاجر، الذي فضحه الله وسماه أبا جهل وهو جدير به، وأتى ببعض الأدلة على صدق جهله ــ كما نراها ــ في هذا الهجاء الشديد الوقع على نفس أمثاله الذين يجعلون من أنفسهم قادة لقومهم، وسادة على غيرهم، ولكن حساناً جعل منه هذا الفاجر الجاهل الترق الذي يظهر الغضب والطيش لأتفه الأسباب، فليس كما زعم أنه حكيم، لكنه جاهل ذميم .

ومن الأفراد الذين هجاهم حسان ــ رضي الله عنه ــ وصوّب إليهم سهامه فأصابهم في المقتل، ونال منهم " الحارث بن هشام ابن المغيرة " وهو مخزومي قرشي، وهو أخو أبي جهل .

ومما قاله في الحارث هذا تحت عنوان " وارث الخيانة والخنا " :

يا حار إن كنت أمراً متوسعـــــاً
فافد الأولى ينصفن آل جنـــــاب [2]

---

(١) الديوان ص ٢٠٢، ٢٠٣ .

(٢) يا جار : منادى مرخم حارث وهو : الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي أبو عبد الرحمن،

أخوات أمك قد علمت مكانهـــــا
والحق يفهمه ذوو الألبـــــــاب

إن الفراقصة بن الأحوص عنـــده
شجن لأمك من بنات عقـــــــاب

أجمعتُ أنك أنت ألأم من مشـــى
في فحش مومسة وزوك غـــــراب

وكذاك ورثك الأوائل أفهـــــــم
ذهبوا وصرت بخزية وعـــــــذاب

فورثت والدك الخيانة والخنـــــا
واللؤم عند تقايس الأحســـــــاب

وأبان لؤمك أن أمك لم تـــــكن
إلا لشـــــر مقارف الأعـــــراب (١)

صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، يضرب به المثل ببنياته في الشرف والحسن، وغلاء المهر، مدحه كعب بن الأشرف، وشهد بدراً مع المشركين فانهزم، فعيره حسان بن ثابت ... وأسلم يوم الفتح، وهو أخو أبي الجهل، توفى سنة ١٨ هـ، راجع الأعلام ج ٢ ص ٢٥٨، وآل جناب : يريد جناب بن هبل من كنانة عذرة من القحطانيين، جد جاهلي من بنيه " بنو حارثة " .

(١) الديوان ص ٤٢ .

فالشاعر هنا ينادي الحارث مرخماً لهذا النداء، وفي هذه دلالته الواضحة على مكانته الهينة والذليلة عنده قائلاً له : إن كنت غنياً ومتوسعاً فافعل ما يفدي هؤلاء الناس وهم آل جناب، ولكني أعرفك، كما يعرفك غيري، فخالاتك " وهم أخوات أمك " تعرف أين هن ؟، والحق أبلج وواضح لكن يغيب على أمثالك الأغبياء، ولا يفهمه إلا أصحاب العقول السليمة، ثم بعد أن عيَّره بخالاته، أخذ يذكر أمه، وما عند ابن الأحوص من أخبار وأشياء تحزن " شجن لأمك من بنات عقاب " .

ثم أخذ يقدح في أخلاقه بعد أن ذمه في عرضه فقال له إنك لئيم زنيم، بل ألأم من مشى في فاحشة، وليست عادية بل فحش مومسة، وامرأة عاهرة فاجرة، ثم ولى وجهه إلى نسبه، فالأوائل ذهبوا بما أفضوا، وأنت صرت بالخزي والعار، ومن ثم جنى والدك من جراء أفعالك المخزية والمشينة الخيانة، واللؤم عندما تقاس الأحساب والأنساب، وأظهر كل ذلك هذا اللؤم المتأصل لأنه رضعته من ثدي أمك وهي لم تكن إلا زوجاً لمثل أبيك من الأعراب الغلاظ ..

ومن هجاء حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ الذي وجهه إلى الحارث، هذه الأبيات والتي تحت عنوان : " ترجو النجاء وليس حين ذهاب "، قال :

يا حار قد عولت غير معــول
عند الهياج وساعة الأحســـــاب

(إذ تمتطي سرج اليدين نجيبة
مرطي الجراء خفيفة الأقـــــراب

والقوم خلفك قد تركت قتالهـــم
ترجو النجاء فليس حــين ذهاب)

هلا عطفت على ابن أمك إذ ثوى
قعص الأسنة ضائع الأســـــلاب

جهماً لعمرك لو ذُهبت بمثلهـــــا
لأتاك أجثم شابك الأنـــــــــياب

عجل المليك له فأهلك جمعـــــــه
بشنار فخرية وسوء عـــــــذاب

لو كنت ضنء كريمة أبليتهـــــــا
حُسنَى ولكن ضنء بنت عقـــاب[1]

وفي هذه الأبيات نرى صورة مغايرة لهجاء حسان للحارث، فإذا كان فيما سبق هجاه باللؤم وطعنه في عرضه وعيره بخالاته وأمه، فهنا يهجوه بالجبن والضعف والفرار من المعركة تاركاً وراءه أقرب الناس إليه وهو " ابن أمه ؟ "، وهو هنا يذكره بما كان منه عندما امتطى صهوة فرسه السريعة في العدو والجري، وولّى مدبراً صاغراً بعد أن ترك أقرب الناس إليه ومعه عشيرته وباقي قومه خلفه لائذاً بالفرار يرجو النجاة حتى ولو مات الجميع، وهذا لا يفعله إلا جبان، وليس هذا من شأن العربي الأبي الأصيل الذي يفضل الضرب في النحور على الطعن في الظهور، وقال : " إن استقبال الموت خير من استدباره " فلو كانت أمك أصيلة، وربتك على الشجاعة، ورضعت منها الشرف والعزة لما فعلت هذه الفعلة النكراء، ولكن نسلك من " بنت عقاب " وهي أسماء بنت مخربة بنت عقاب وهي أم الحارث وأبو جهل .

وهذه الأبيات تحمل في طياتها مرارة شديدة على الحارث وعلى غيره من المشركين في ذلك الوقت، فقد صب فيها جام غضبه على الحارث الذي وصفه بالغدر والخيانة، ووبخه وقرعه بمثل هذا الهجاء والسباب والتشنيع، وهذا يعطينا دليلاً واضحاً على أن حسان كان خير من يتعامل مع أمثال الحارث ومن على شاكلته من المشركين بمثل هذه الصفات التي تفضحهم وتخزيهم، إن حاسة حسان الشعرية كانت قوية في تصوير هذه الحادثة وغيرها من المشاهد، وما جرى فيها من مواقف بين المشركين والمسلمين، فصورها لنا وكأننا نشاهدها ونحسها ونراها مجسدة بجسده، وبمثل هذه

(١) راجع الأبيات في الديوان ص ٣٦ .

الأبيات أخزى حسان الحارث، وصور لنا حقارته وخيانته وضعفه، وانكساره على أيدي جنود الحق .

ومن الشخصيات التي هجاها حسان بن ثابت كذلك ابن الزبعري " وهو عبد الله بن الزبعري بن قيس السهمي القرشي أبو سعيد : شاعر قريش في الجاهلية، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران من غضب المسلمين، ومع ذلك لم ينج ابن الزبعري من هجاء حسان وغضبه خاصة ـــ فيروى أنه رماه بيت واحد ما زاد عليه، وذلك قوله :

لا تعد مَنْ رجلاً أحلك بغضه ∴ نجران في عيش أجذّ لئيم [1]

فلما بلغه ذلك قدم على رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ، فأسلم وحسن إسلامه، واعتذر إلى الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقبل عذره، ثم شهد ما بعد الفتح من المشاهد"\[2] .

ولكن صاحب الأغاني ينقل هذا الخبر فيقول : " إلا أن إسلام عبد الله بن الزبعري لم يكن ليحول بينه وبين إثارة الأحقاد ونبش الماضي المملوء بالضغائن، ونشير هنا إلى خبر قدوم عبد الله وضرار ابن الخطاب إلى المدينة، حيث أنشدا حساناً ما قاله في هجاء الأنصار ثم ركبا راحلتهما دون أن يتيحا لحسان أن يجيبهما بما كان قد قال فيهما وفي قريش عامة، فاستعدى عليهما عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ ... " [3] .

ووجدت في الديوان بعد هذا البيت بيتين آخرين والثلاثة تحت عنوان " عذاب ابن الزبعري وابنه، يقول حسان ـــ رضي الله عنه ـــ :

لا تعد من رجـــلاً أحلك بغضه ∴ نجران في عيـــش أجذّ لئيم

بليت قناتك في الحروب فألفيت ∴ خمانة جوفـــاء ذات وصوب

---

(١) الديوان ص ٢١٢، وستأتي بقية الأبيات .

(٢) راجع في ذلك : الاستيعاب ج ١ ص ٣٦٧، والسيرة ق ٢ ص ٤١٨ .

(٣) الأغاني ج ٤ ص ١٤٠ وما بعدها ط / الدار .

غضب الإله على الزبعري وابنه ∴ وعذاب سوء في الحياة مقيم

فحسان يتوعد ابن الزبعري قائلاً هناك من يبغضك أشد البغض — وهو يعني نفسه — وأنت هارب إلى نجران تعيش وحيداً مطروداً " أحذ " ولئيم " ولا يوجد معك ما به يهابك الغير أو يخشاك لأجله، فقناتك في الحروب قد بليت وعفى عليها الزمن وفقدت أثرها فهي ضعيفة جوفاء، ذات عيوب كثيرة، وهو يقصد بقناته لسانه وشعره، وهذا ما يتناسب وشاعرنا حسان لأن لسانه كان هو قناته ورمحه وسيفه وسلاحه الذي يحارب به الأعداء بدليل أن ابن الزبعري — كما مر — كان شاعراً، وقد هجا المسلمين فرد عليه حسان في قصيدة أخرى، ونذكر منها على سبيل المثال، ما قاله ابن الزبعري يعرض بالمسلمين وهاجياً لحسان :

يا غراب البين أسمعت فقل ∴ إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشـــــر مدى ∴ وكلا ذلك وجـــه وقبل
والعطيات خســـاس بينهم ∴ وسواء قـبر مثرٍ ومقل

إلى أن يقول ابن الزبعري في هذه القصيدة :

ليت أشياخي ببدر شهـــدوا ∴ جزع الخزرج من وقع الأسل
فاسأل المهراس من ساكنـــه ∴ بعد أقحاف وهـــام كالحجـــل

وهذه قصيدة هجائه وجه فيها ابن الزبعري كل سهامه ضد حسان والمسلمين، ويفتخر كذلك بما صنعه المشركون في يوم أحد إلى أن يقول " بسيوف الهند تعلو هامهم .. "[1] .

وهنا تصدى له حسان، وكال له الصاع صاعين، وذكره بأيام النصر في بدر، عندما ساق المسلمون فرسان الشرك إلى سفح الجبل، ثم هرب المرتاعون كالإبل المرسلة المتتابعة، ثم مقتل أصحاب اللواء ورؤسائهم، ونذكر منها بعض الأبيات :

ذهبت بابن الزبعري وقعـــــــة

(١) راجع الأبيان في : السيرة ق ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧، وديوان حسان ص ١٨٠، وطبقات الشعراء ص ١٩٨ .

كان منا الفضل فيها لو عـــــدل

ولقد نلتم ونلنـــا منـــــكم
وكذاك الحرب أحيـــــاناً دول

إذا شـــددنا شـــــدة صادقـــة
فاجأناكم إلى سفح الجبـــــــل

ثم يسرد حسان ما صنعه أبطال المسلمين بالمشركين في يوم بدر، وهو فخر فيه نبرة الهجاء الساخر من ابن الزبعري وحزبه، ويصفه بعدم العدل والإنصاف عندما ادعى القوة المطلقة، لكن حسان التزم فيها جانب العدل عندما ذكر فيها " نلتم ونلنا " وتشع في هذه القصيدة روح الإسلام بما شاعت فيها من المعاني الإسلامية والألفاظ الدينية . . . [1] .

ومن هجاء حسان بن ثابت لابن الزبعري ما نراه في هذه الأبيات والتي تحت عنوان " أقصر عن الهجاء " وكأنه يهدده ويتوعده، يقول حسان :

لقد علمـــت بنو النجار أنـــي
أذود عن العشـــيرة بالحســـام

وقد أبقيت في سهـــم علوبـــا
إلى يوم التغابن والخصـــــام

فلا تفخر فقد غلبت قديمـــاً
عليك مشابه من آل حـــــام

فلست من الذوائب من قصـــي
ولا في عز زهرة إذ تســـامي

(١) راجع الأبيات في ديوان حسان ص ١٨١، ١٨٢ .

ولا في الفرع من أبناء عمـــــــرو
ولا في فرع مخزوم الكـــــــــرام

فأقصر عن هجاء بني قصـــــــي
فقد جربت وقع بني حـــــــــرام [1]

ومن المعروف أن ابن الزبعري كان من شعراء قريش المناوئين للدعوة الإسلامية، وهو من ألمع شعراء قريش وأشدهم عداوة للمسلمين وهجاءاً لهم وتحريضاً عليهم، وهو مقدم في شعره على شعراء مكة، وقيل : " وكان من أشعر الناس وأبلغهم، يقولون إنه أشعر قريش قاطبة " [2] .

وفي هذه الأبيات يقف له حسان بالمرصاد ويقول له كف عنا لسانك، لأنك لا تستطيع منازلتي وعداوة المسلمين، فأنا عريق في الدفاع عن عشيرتي وقومي وحزبي الذي أنتمي إليه ـــ حتى قبل الإسلام، فقد علمت بنو النجار وهم قومي أنني أدافع عنهم قديماً ولا أسمح لأحد أن يمسهم بكلمة، وسلاحي في هذا الدفاع هو " حسام مصلت دائماً " ويقصد بهذا لسانه الطويل :

" لساني وسيفي صارمان كلاهما
ويبلغ ما لا يبلغ الســـيف مذودي" [3]

ولو استقرأت التاريخ لرأيت ما فعل لساني بالخصوم، فقد ترك فيهم آثاراً جسيمة، وعاراً باقياً لا يمحوه الزمن إلى يوم التغابن، وهو يوم القيامة، فلا تفخر ولا تتباهى بقريش فلست منهم ـــ كما سوف يأتي في الأبيات التالية ـــ لأنك لست من بني قصي ولا في عز زهرة ولا تنتمي إلى الأماجد وافعالهم من أبناء مخزوم، وأخيراً ينصحه ألا يهجو بني قصي ـــ ويقصد النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ومن آمن معه من هؤلاءا لناس، ولماذا ؟ لأنك علمت أثر ووقع بني حرام وهم

---

(١) الديوان ص ٢٣٨ .

(٢) راجع في ذلك الأغاني ج ١٥ ص ١٧٩، ط / ساس، وسمط اللآلي ج ١ ص ٣٨٧، وما بعدها، والاستيعاب ج ١ ص ٣٦٧، ونسب قريش ص ٤٠٢ نقلاً عن شعر المخزومين الجبوري ص ١٢٨ .

(٣) الديوان ص ٨١ .

الأنصار قوم حسان وعشيرته ويقصد " بوقع بني حرام " إما دفاع الأنصار عن الإسلام ووقوفهم مع النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وحمايتهم للإسلام، وأثر ذلك على قريش وهزيمتهم لها في يوم بدر، أو هجاء حسان وأثره على نفوس الأعداء، وأرجح أن حسان بن ثابت يقصد هذا المعنى، فهو يحذره من التمادي في هجائه للمسلمين، وإلا سيصب عليه جام غضبه، كما هو واضح من عنوان هذه الأبيات " أقتصر عن الهجاء " .

ويستطرد حسان هاجياً لابن الزبعري قائلاً له تحت عنوان : " لا تفخر بقوم لست منهم " :

ألا إن ادعاء بني قصـــــــي
على من لا يناسبهـــم حـــــرام

فإنك وادعاء بني قصـــــــي
لكالمجرى وليس له لجـــــــام

فلا تفخر فإن بني قصـــــــي
هم الرأس المقدم والسنـــــــام

وأهل الصيت والسورات قدمـــا
مقدمها إذا نسب الكـــــــرام

وهناك أبيات أخرى يعرض فيها حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ بابن الزبعري ويهجوه فيها هجاءاً قاسياً لا داعي لذكرها، حتى لا يطول بنا المقام .

ومن الهجاء الذي كان له أثره البالغ حتى جعل من قيل فيه يبكي، هذه الأبيات والتي قالها في " الحارث بن عوف " وكان من فرسان الجاهلية وهي تحت عنوان (الغدر شيمتكم) :

يا حار من يغدر بذمـــة جـــاره
فيكم فإن محمـــــداً لم يغـــدر

إن تغدروا فالغدر منـــكم شيمـــــــة
والغدر ينبت في أصول السخـــــبر

وأمانة المرى حيث لقيتـــــــــــــه
مثل الزجاجة صدعها لم يجـــبر[1]

ويذكر د . شوقي ضيف هذا البيت (إن تغدروا ..) وقبله يقول: " وبحق سمي حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مصمية، وقصته مع الحارث بن عوف المري حين قتل في جواره داع من دعاة الرسول مشهورة فقد قال فيه وفي عشيرته : (إن تغدروا .. البت)، وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار، واستجار بالرسول متوسلاً إليه أن يكفه عنه .. "[2] .

وبالنظر في هذه الأبيات نجد أن حسان بن ثابت ينادي الحارث " يا حار " منادى مرخم، قائلاً : يا حارث إياك والغدر فليس من شيم الكرام، ومن يغدر بذمة جاره، فإن الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لم يغدر، هو ولا أصحابه، لأنهم أوفياء، لكن الغدر لكم صفة وجبلة وطبيعة، فليس جديداً عليكم، والغدر لا ينبت، ولا يوجد إلا في بيئة وأصل مثل أصلكم وبيئتكم، والسخبر شجر إذا طال تدلت رؤوسه وانحنت، وقالوا في الرجل إذا غدر " ركب فلان السخبر " ويهجوه أيضاً بأنه مضيع للأمانة شأنه كبني قومه، فهو مري متى لقيته في أي زمان ومكان ليس له عهد ولا أمان، وشبهه بالزجاجة إذا انكسرت لا يمكن أن يجبر كسرها، أو يعالج صدعها لأنه ليس له دواء .

ومن الأفراد الذين هجاهم وعرض بهم حسان أمية بن خلف، وابنه صفوان، ومن هذا الهجاء في أمية بن خلف، بعد أن قال بعض الأبيات في حسان، فأجابه شاعرنا بقوله :

---

(١) راجع الديوان ص ١٢٧، والحارث بن عوف بن عمرو بن مالك .. من خرسان الجاهلية، له فيها أخبار ـــ أدرك الإسلام وأسلم (راجع الأعلام ج ٢ ص ١٥٧) .

(٢) العصر الإسلامي د . شوقي ضيف ص ٧٩ .

أتاني عن أمية ذرو قـــــول
وما هو بالمغيب بذي حفـــــاظ

سأنشر إن بقيت لكم كـــــلاماً
ينشر في المجامع من عـــــكاظ

قوافي كالسِّلام إذا استمـــــرت
من الصم المعجرفة الغـــــلاظ

تزورك إن شـــتوت بكل أرض
وترضخ في محلك بالمقـــــاظ

بنيت عليك أبياتـــاً صـــــلاباً
كأمر الوســق قُفِّص بالشـــظاظ

مجـــللة تعممه شـــــناراً
مضرمة تأجج كالشـــــواظ

كهمزة ضيغم يحمي عرينـــــا
شديد مغارز الأضـــلاح خـــــاظي

تغض الطرف أن ألقاك دونـــــي
وترمي حين أدبر باللحـــــاظ [1]

وكانت هذه الأبيات من حسان رداً على أمية بن خلف لأنه هجا حسان بن ثابت قبلها، وجعل قوله زوراً وبهتاناً، وكذباً لا أصل، ولا يمت إلى الحقيقة بصلة، ومن ثم توعده حسان بأنه سينشر مخازيه ويذيع مثالبه وعيوبه على العرب أجمعين في سوق عكاظ، وسوف يجلله بالعار والشنار

(١) الديوان ص ١٤٧ وما بعدها .

حتى لا تقوم له قائمة، ويهدده بقوة شعره وشدة هجائه، فهو عبارة عن " قوافي كالسِّلام " بكسر السين أي حجارة صماء قوية شديدة، إذ الحجر الأصم هو الصلب المصمت [1] القوي، وهذه صورة بدوية استوحاها حسان من الصحراء التي ألفها العرب لتكون أوقع في النفس، فكلهم يعرفونها، وزاد على هذه " السِّلام " بأنها معجرفة أي شديدة غليظة، وهذه القوافي القوية التي تشبه الصم الصلاب لا تنفك عنك ولا تبتعد عنك فهي تلازمك حيثما كنت في أي مكان وزمان في الشتاء والصيف .

ثم يأتي له بصورة أخرى بدوية أيضاً وهي " كهزمة ضيغم وهو الأسد القوي الذي يحمي عرينه بهذا الصوت المخيف، فلا يستطيع أن يقترب منه أي كائن حي مهما كانت قوته، فالكل يعرف من هو " الضيغم " خاصة إذا كان قوياً فتياً، فمثلك لا يستطيع أن ينظر إليّ من هيبتي في عينه، ومن شدة الرعب والخوف التي تقذف في قلبه عندما يراني، ولكن عندما أدبر وأمشي لحاجتي، ترمي بلحظك، وتسترق النظرة العاجلة .

وإذا تتبعنا ما قاله حسان في هجاء الأفراد من المشركين لطال بنا المقام، ولما تناسب وطبيعة هذا البحث، ومن ثم سأذكر بعضاً من هؤلاء ـــ ممن تبقى منهم ـــ على عجل، وأكتفي بمثال واحد لكل فرد منهم، فمن هؤلاء مثلاً سعد بن أبي سرح الذي هجاه بمثل هذه الأبيات وجاءت تحت عنوان " والله أدرى " وفيها ـــ كما سوف ترى ـــ صورة مرزية لهذا الفارس القرشي العامري، ولكن حسان بشعره جرده من هذا النسب وجعله دعياً في قريش، وهذا ما يطلق عليه النقاد " الصدق الفني، لأن الشعر لا ينقل أو يصور لنا الحقائق المجردة، فهذا لا يسمى شعراً بل نظماً، وأعذب الشعر أكذبه " كما يقولون، واسمع حسان في هجاء سعد قال :

ووالله ما أدري وإني لســـــائل

مهانة ذات الخيف ألأم أم سعـــــدُ ؟

أعبد هجين أحمر اللون فـــــاقع

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص ٣٧٠ ط / نهضة مصر .

موتر علباء القفا قطط جعـــــــد

وكان أبو سرح عقيمـــــاً فلم يـــكن

له ولد حتى دعيت له بعـــــــــد[1]

إنها صورة حقيرة بشعة لسعد بن أبي سرح الذي كان يعد من فرسان قريش، وبدأ رسمها بهذا التساؤل، الذي جعل فيه العالم بالشيء بمنزلة الجاهل به، هذا اللؤم والخسة والدناءة كانت في سعد، أم في أمه مهانة ؟ ثم راح يصوره بهذه الصورة الحقيرة التي تليق به فجعله اللؤم ذاته، ثم زاد تلك الصورة قبحاً وبشاعة عندما وصفه بأنه عبد هجين أُمه أَمة، مشدود القفا ـــ مجعد الشعر كالزنوج، ومن ثم أظهره من خلال هذه الصفات بصورة ساخرة، ثم تناوله من جهة أمه فقذفها ورماها بالفاحشة، لأنه جعل أباه عقيماً لا يلد، فكيف حملت أمه ؟ ومن أين جاءت به ؟ وهكذا كان ينهج حسان في معظم هجائه للمشركين يقدح في أعراضهم، وينفيهم عن أنسابهم ويصمهم بالصفات التي تحط من قدرهم، ولذلك كان هذا الهجاء أشد عليهم من نضح النبل ـــ كما مر ـــ .

وعلى هذا المنهج يقول حسان لأبي اليختري بن هشام الأسدي، تحت عنوان " يا ابن مقطوعة اليد " :

وما طلعت شمس النهار ولا بـــــدت
عليك بمجد يا ابن مقطوعة اليـــــد

أبوك لقيط ألأم الناس موضعـــــــاً
تبنى عليك اللؤم في كل مشهـــــــد

إذا الدهر عفى في تقادم عهـــــده
على عار قوم كان لؤمك في غد[2]

(١) راجع الديوان ص ٩٣ .

(٢) راجع الديوان ص ٩٧ .

فهو يصف أباه باللؤم، وأنه لقيط دعي لا يعرف له أب ولا أم، وجاءت أمه به بطريق غير شرعي، فهو ابن سفاح وأبوه كذلك، إنه هجاء يندى له جبين العربي، وتخر له الجباه ذليلة مهانة، في مجتمع لا يعرف إلا العصبية القبلية، ولا يعتز إلا بالنسب، ولا يقدس إلا الحسب، وهذا السباب الفاضح والقذف المشين لخليق بأن يحط من قدر المهجوين، ويترل بصاحبه إلى الحضيض، ويصيبه في مقتل، وقد أرسلها حسان ـــ كما رأينا ـــ إلى كل من عادى الدعوة الإسلامية، أو تعرض لحرمات المسلمين .

ومن الأفراد الذين صوب إليهم سهامه ووجه إليهم سلاحه ولسانه، وهجاهم هجاءً مراً، المغيرة بن شعبة، ونختار من هذا الهجاء هذه الأبيات التي جاءت تحت عنوان " لؤم ثقيف " يقول :

لو أنّ اللؤم ينسب كان عبـــــــداً
قبيح الوجه أعور من ثقيـــــــــف

تركت الدين والإيمان جهـــــــلاً
غداة لقيت صاحبة النصيـــــــــف

وراجعت الصبا وذكرت لهـــــــواً
من الأحشاء والخصـــر اللطيـــف[1]

فهنا يعرض بالمغيرة قبل أن يسلم، ويرسم له صورة ساخرة تحط من قدره، وتسفه فعله وعقله، فرسمه مجسداً اللؤم فيه، فلو كان إنساناً لصار هذا المغيرة، فهو قبيح الوجه أعور العين غاية في القبح والبشاعة، ثم راح يصوره بصورة تليق بمقامه الحقير إذ جعله اللؤم ذاته، فهو متصف به، وقد هجاه بأنه ترك الدين والإيمان جهلاً وكان يظن به شيئاً من رجاحة العقل، لأنه كان أحد دهاة العرب وقادهم وولاهم، وكان يقال له مغيرة الرأي [2]، فهو ليس كغيره من المشركين الذين ابتعدوا عن الإسلام، أو هجاهم حسان بالجهل، فالتعبير به هنا له دلالته ووقعه على نفسية المغيرة

(١) الديوان، ص ١٦٦ .

(٢) الأعلام للزركلي ج ٧ ص ٢٧٧ .

قبل أن يسلم، وبعد أن دخل في الإسلام.

ومن هذا الهجاء في نفس الاتجاه والسلوك في شعر حسان للمشركين ما قاله في قيس بن مخرمة تحت عنوان " معدن اللؤم " :

لقد كان قيس في اللئـــــام مردداً
عصارة فرخ معدن اللـــــؤم ماكد

ولادة سوء من سمية إنهـــــا
أمية سوء مجدها شر تـــــالد

سفاحاً جهاراً من أحيمق منهـــم
فقد سبقهم في جميع المشـــاهد

فجاءت بقيس ألأم الناس محتـــداً
إذا ذكرت يوماً لئام المحـــاتد [1]

فما أقسى هذا الهجاء على قيس، إذ جعله حسان في اللئام معروفاً واسمه معهم مذكوراً ويردده الجميع، ثم وصفه بأنه " عصارة فرخ " و " معدن اللؤم " ثابت فيه ومتأصل في جذوره، ثم عرج على ولادته، ومن هي أمه ؟ فهي أمَّية سَوءٍ ـــ بفتح السين ـــ والمقصود بها الفساد قديمها شر كله، وهي ليس لديها حياء فقد جاءت به سفاحاً، وليتها كتمت هذه الفعلة أو استترت، ولكنها جهرت بها، وانظر إلى هذا التعبير القاسي الشديد الذي يخدش حياء الرجل قبل المرأة " سفاحاً جهاراً " وليته من رجل فيه مطمع، ولكنه من رجل لئيم حقير كذلك، فهو " من أحيمق " تصغير أحمق وهي بذلك سبقت اللئام إلى اللؤم في أبشع صوره وأظهرها .

وكما هجا حسان بن ثابت من خالف الدعوة الإسلامية وناصب أهلها العداء من القرشيين وأهل مكة، كذلك صوب سهامه وهجاءه لمن عاداها من أهل المدينة والأنصار، حتى لا

(١) الديوان ص ٩٦ .

يقول أحد إن الشاعر لم يتعرض لأعداء الدين من الأنصار لأنهم عشيرته، وهذا يعطينا دليلاً واضحاً على صدق إيمان حسان وإخلاصه للدعوة الإسلامية، لأن الصلة والقرابة والأهل في الحقيقة لا توجد إلا في ظل الدين الإسلامي، وكما نعرف جميعاً أن الإنسان المسلم كان يتبرأ من الكافر حتى وإن كان أقرب الناس إليه، وهذا من التشريع الإسلامي، فلا يحل لامرأة مؤمنة ـــ مثلاً ـــ أن تبقى تحت رجل مشرك، واقرأ قوله تعالى : " لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ " الآية [1] .

ونذكر هذا المثال لهجاء حسان لرجل من الأنصار، وهو بشر ابن أبيرق أبو طعمة الظفري سرق درع حديد في عهد الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فأقبل رجال من قومه الأنصار فعذروه عند النبي وكذبوا عنه، لأن أحدهم أقسم له بالإيمان المغلظة، فصدقه الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لأنه كان يظن ألا يوجد أحد يحلف بالله كاذباً، لأن الله ـــ تعالى ـــ أعظم وأجل من أن يحلف به كذباً، فأنزل الله ـــ تعالى ـــ بعض الآيات في سورة النساء عتاباً لرسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ، وبدأها بقوله تعالى : " إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ... " الآيات [2] .

فلما ظهر افتراء هذا الرجل وكذبه، ونزل فيه هذا القرآن، أيضاً هجاه حسان وإن كان من قومه فقال ـــ رضي الله عنه ـــ تحت عنوان : [سارق الدرعين] :

وما سارق الدرعين إن كنت ذاكـــراً
بذي كرم من الرجال أوادعـــــــــه

---

(١) سورة المجادلة من الآية رقم (٢٢)، وراجع سورة التوبة الآية (٢٣، ٢٤) .

(٢) سورة النساء من الآية (١٠٥ وحتى الآية ١١٣) .

فقد أنزلتـــه بنت سعد فأصبحـــــت
ينازعها جلد استها وتنـــــــــازعه

فهلا أسيداً جئت جارك راغبـــــــاً
إليه ولم تعمد له فنرافعـــــــــــه

ظننتم بأن يخفي الذي قد صنعتـــم
وفينا نبي عنده الوحي واضعـــــــه

فلولا رجال منكم أن يســـــــوءهم
هجائي لقد حلت عليكم طـــــوالعه

فإن تذكروا كعباً إذا ما نســـــــيتم
فهل من أديم ليس فيه أكارعـــــــه

هم الرأس والأذناب في الناس أنتم
فلم تك إلا في الرؤوس مسامعه [1]

ويستهل حسان هذه الأبيات بقوله " وما سارق الدرعين .. " أي أن بشير بن أبيرق هذا الرجل من كرام الرجال، لا أهجوه، ولكنه رجل خسيس " سارق " اقترف ما يغضب الله تحت عباءة الأنصار، ولكني لا أسكت عن الحق، فهذا يستحق الهجاء والمنقصة، وكشفه أمام الناس حتى ولو كانوا من أعداء الإسلام، ثم يذكر بعض الألفاظ النابية والقبيحة لأنه يستحق أكثر من ذلك، ومنها عندما نزل على تلك المرأة وهي بنت سعد قال حسان فيها " ينازعها جلد استها وتنازعه " ولا داعي للتوضيح أكثر من هذا، واسم هذه المرأة ـــ كما ذكر ابن كثير ـــ " سلامة بنت سعد " هجاها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، وأظن أن من هذا الشعر، تلك الأبيات

(١) راجع الأبيات في الديوان، ص ١٦٤ .

التي ذكرتها هنا، ونذكر في توضيحها : " هلا نزلت وجئت إلى أسيد وهو أسيد بن عروة الذي جاءه بنو أبيرق رهط هذا السارق ليكلموه في شأن هذه القصة، وهو الذي تكلم في حق السارق، وأراد أن ينفي عنه التهمة كما هو ظاهر الخبر، ثم يهجوهم جميعاً بأنهم ضعاف الإيمان يعتقدون أن الله لا يعلم أعمالهم أو وتخفي عليه أفعالهم، وهذا كذب وبهتان، فالله لا تخفى عليه خافية، وهو يخبر رسوله عن طريق الوحي بكل ما تكون فيه أشياء خافية أو إجابة عن أسئلة لا يعرف إجابتها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ [1] .

ثم يهددهم بقوله لولا منكم رجال لهم سابقة وفيهم صلاح وخير ويؤذيهم هجائي " لقد حلت عليكم طوالع هذا الهجاء وهذا أسلوب تأكيد، وقد استخدم الفعل الماضي في هذا التعبير وأكده بقد التي تفيد التحقيق، وهذا أسلوب عربي معروف نزل به القرآن ومنه مثلاً ما جاء في أول سورة النحل: " أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ... " وهو لَمَّا يأت بعد ولكن قادم لا محالة، ثم يختتم هذه الأبيات بقوله، هؤلاء الذين عاديتم هم المقدمون في المجالس، وهم رؤوس الناس وسادتهم، أما أنتم، فلا ذكر لكم، ولا مكانة ترفعكم لأنكم في مؤخرة القوم، وفي قوله : " والأذناب في الناس أنتم " تبكيت وتقريع لهم ودليل على ضعتهم وتأخرهم عن المحامد والمكارم .

(١) القصة راجعها في السيرة النبوية ج ١ ص ٥٥٣ وما بعدها، وراجع القصة كاملة في تفسير القرآن العظيم لابن كثير ص ٥٥٠ : ٥٣٣، جـ١

المبحث الثالث

" من الخصائص الفنية لهذا الهجاء "

وبعد هذا العرض الموجز وتلك الدراسة السريعة لهذه الصور من هجاء المشركين في شعر حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ والتي كانت دفاعاً عن الإسلام، وسلاحاً بتاراً وقوياً ضد المشركين الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية، بكل ما أوتوه من قوة مادية ومعنوية، وحاربوه بالعنف، كما حاربوه بالدعاية الإعلامية، وهنا ظهرت الحاجة الملحة إلى سلاح الكلمة والمتمثلة في شعر الهجاء المقذع الذي يؤثر في نفوسهم ويضعف من روحهم المعنوية، لأن للكلمة الشعرية في ذلك الوقت أهميتها العظمى وأثرها البالغ، ومن ثم كان من رأي الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ السديد، ونظره الثاقب، وخبرته بهؤلاء المعاندين أن يشهر هذا السلاح ويستخدم الشعر رداً عليهم، فكان حسان ابن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ من أبرز الشعراء الذين رفعوا راية النضال الشعري ضد المشركين، وأنه كان أقوى شاعر اعتمد عليه الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في الذب عن أعراض المسلمين والدفاع عن هذه الدعوة الجديدة .. وأيضاً كان هو الشاعر البارز الذي يهابه الخصوم، فكانت قريش تجزع الجزع الشديد من هجائه، حيث كان يطعن في أحسابها، ويرميها بالهنات، وكان الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يؤثر حساناً، ويوجهه الوجهة التي تردع خصوم المسلمين [1] .

وقد وقفنا في السطور القليلة السابقة على جانب من هذه القضية، وهنا نريد أن نلمح ـــ ولو بإيجاز ـــ إلى بعض الخصائص الفنية لهذا الهجاء في شعر حسان الذي جاء تلبية لرغبة الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وتنفيذاً لأمره، عندما قال لحسان " اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك ... " [2] .

---

(١) راجع في ذلك شعر المخضرمين، د. يحيى الجبوري ص ٦٣، والأغاني ج ٤ ص ٣، ط / ساسي .

(٢) الأغاني ج ٤ ص ١٣٦ وما بعدها، ط / الدار، والعقد الفريد ج ٥ ص ٢٩٤، أحمد أمين وغيره، وزهر الآداب ج ١ ص ٦٢ ط ٢ بعناية زكي مبارك .

ومن خلال هذه الدراسة الموجزة والتي اقتصر فيها الحديث عن ذكر صور الهجاء بعض الأفراد من المشركين الذين حاربوا الدعوة بسيوفهم وألسنتهم، تبين لنا الكثير من الخصائص والسمات الفنية التي تميز بها هذا الشعر، وكان لحسان فيه منحاه الخاص، ومن هذا المنطلق كان له أكبر الأثر وأقساه على نفس الفرد المهجو، لأنه سيف من سيوف الإسلام، سلّه من غمده الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ووجهه إلى أعدائه، وأول ما نذكر هنا من تلك الخصائص والسمات ما يلي :

أولاً : منهج حسان بن ثابت وطريقته في هذا الهجاء :

هذا المنهج الذي سلكه حسان في هجائه انبثق من توجيه الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ له عندما قال " اهج قريشاً، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل " وهو الرمي بها، ومن ثم أخذ الإذن في هجو الكفار، وقد سبق أن أشرنا إلى أمر النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بهجائهم، وطلبه ذلك من أصحابه واحداً بعد واحد، ولم يرض قول الأول والثاني وهما : " عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك " حتى أمر حسان فأغلظ لهم القول، وقد أمر الله تعالى بالجهاد في سبيله، ضد الكفار والإغلاظ عليهم، فكان هجاء حسان بتلك الطريقة أشد عليهم من رشق النبل فكان مندوباً لذلك ومباحاً مع ما فيه من كف أذاهم، وبيان نقصهم والانتصار بهجائهم المسلمين " فشفى واستشفى " وقال حسان لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ مبيناً طريقته ومنهجه في هذا الهجاء " لأفرينهم بلساني فري الأديم " أي : لأمزقن أعراضهم تمزيق الجلد " [1] .

وحول هذا المنهج، أمره الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن يذهب إلى أبي بكر ـــ رضي الله عنه ـــ كما مر ـــ فقال: " كيف تهجوهم وأنا منهم؟ " إلى أن قالت له قريش " ما غاب عنه ابن أبي قحافة ... " .

قال ابن سيرين : وانتدب لهجو المشركين ثلاثة من الأنصار : حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان، وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر، ويذكران مثالبهم، وكان عبد الله يعيرهم بالكفر وعبادة الأوثان، فكان قوله يومئذ أهون

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٨ ص ٢٦٠، ٢٦٥، تحقيق د . محمد محمد تامر ط / دار الفجر للتراث .

القول عليهم، وكان قول حسان، وكعب أشد القول عليهم، فلما أسلموا وفقهوا كان أشد عليهم قول عبد الله بن رواحة [1] .

وهذا الهجاء الذي كان يوجهه حسان إلى أشخاص بعينهم ينال منهم شخصياً ويحط من قدرهم ويسفه أحلامهم وأفعالهم، ويلصق بهم المعايب والمثالب التي يتأبى عليها كل فرد في تلك البيئة العربية التي تحبذ الشجاعة والنجدة والإقدام في المعارك وحماية الجار ونصرة المظلوم والاعتزاز بالنسب .. فكان منهجه أن يصوب سهامه القاتلة إلى هذا الشخص الذي جعله خليقاً بهذه المعايب والمثالب والنقائض، لما أتى في حق الإسلام من الآثام، أو ارتكب جرماً لا يغتفر في حق بني الإسلام أو نبيه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فيهجوه ويعرض به ذاكراً والده وأمه بشيء يزعجه ويقض مضجعه، ومن ثم كان هجاء حسان ومنهجه يفيض بالعنف وبالقسوة اللاذعة التي تفضح الخصم وتزدريه، وتجعله أضحوكة بين الناس، ويرسمه لنا في صورة ساخرة مقللاً من شأنه ومحقراً لمنزلته وموبخاً لأفعاله، حتى وإن كان من علية القوم، وبشاعرية حسان يجعله أحقر القوم .

وقد رأينا في بعض الصور التي قدمناها أن حسان بن ثابت كان يوجه هذا الهجاء المقذع إلى الأفراد مستنداً فيه على الأنساب القبلية والأحساب المتوارثة، والمآثر الشخصية المحببة لدى الناس، ومن الأمثلة الكثيرة التي مرت وجدناه يرمي خصومه بضعة النسب وهوانه، وبدناءة الأصل، أو يرمي الفرد منهم بالجبن والفرار من المعركة، وباللؤم والسفه والطيش، أو يرميه بضعف العزيمة، أو يجرده من المآثر والمكارم التي يعتز بها الفرد مثل أن يرميه بالبخل والقعود عن نجدة الضعيف .. إلى غير ذلك من المخازي والعيوب التي تلتصق بالفرد وتشينه، وتجعله محطاً للسخرية والاستهزاء .. فكل هذه الأمور يحاول العربي أن يتحاشاها، ويبتعد عنها، وكان يخاف الشعراء حتى لا يقع فريسة لهم فيهجونه بتلك المغازي والمعايب فيكون سبه الدهر .

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة ج ١ ص ٨٤٥ إلى ٧٥٥ .

ومن هذا القبيل ما ذكره حسان ـــ مثلاً ت عن أبي سفيان وهو في معسكر الشرك [1] :

وإن سنام المجد من آل هـــاشم
بنو بنت مخزوم ووالدك العبـــــد

وقال فيها :

وأنت زنيم نيط في آل هـــــاشم
كما نيط خلق الراكب القدح الفـــــرد

ويقول في هجاء المغيرة بن شعبة، وقد مرَّ :

لو أن اللؤم ينسب كان عبـــداً
قبيح الوجه أعو من ثقيـــــــف [2]

ويقول لسعد بن أبي سرح :

والله ما أردي وإني لســـائل
مهانة الخيف ألأم أم ســـــعدُ

أعبد هجين أحمر اللون فاقـــع
موتر علباء القفا قطط جعـــــدُ

وكان أبو سرح عقيماً فلم يكن
له ولد حتى دعيت له بعـــد [3]

ونذكر هنا ـــ على سبيل الإجمال بعض شعراء المشركين الذين هجاهم حسان وتصدى لهم بمثل هذا المنهج القاسي، وهذا الهجاء المقذع بالتقريع والتبكيت والتندر منهم : [أبو سفيان بن الحارث، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبعري، وضرار بن الخطاب، وهند بنت عتبة، والمغيرة،

(١) الديوان، ص ٩٩ : ١٠٠ .
(٢) الديوان، ص ١٦٧ .
(٣) الديوان، ص ٩٣ .

شعبة، والحارث بن عوف الذي بكى من شدة وقع الهجاء على نفسه، وأبو لهب، وأبو سفيان بن الحارث الذي عيَّره بهذا الشعر القاس :

غداً أهل حضني ذي المجاز بسحـــرة
وجار ابن حرب بالمحصب ما يغـــــدو

كساك هشام بن الوليد ثيـــــــــابه
فأبل وأخلف مثلها جدداً بعـــــــــد

قضى وطراً منه فأصبح غاديـــــــــاً
وأصبحت رخواً ما تخب وما تغـــــدو

فلو أن أشياخاً ببـــــدر شهـــــوده
لبلَّ متون الخيـــــل معتبـــــط ورد

فما منع العَيْر الضروط ذمـــــــــاره
وما منعت فخراه والدها هنـــــــد [1]

ويندرج تحت هذا السلوك ميله إلى الإقذاع والتفحش في هذا الهجاء وذكره لبعض الألفاظ النابية، والتي ربما تتصل بمواضع وأعضاء في جسم الإنسان ـــ خاصة المرأة ـــ لا ينبغي أن تذكر في مثل البيئة العربية ـــ حتى وإن كانت قريبة من العصر الجاهلي، ومن هنا كان العربي يجن جنونه، وتثار حفيظته ويلقي بروحه ونفسه في الهلاك صيانة لعرضه، أو حتى لا يخدشه أحد بكلمة .

(١) الديوان، ص ١٠١، ترجمته هو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو سفيان القرشي الأموي ـــ وكان يكنى أبا حنظلة، وأمه صفية بنت حزن الهلالية .. وهو والد معاوية مؤسس الدولة الأموية ـــ أسلم عام الفته وشهد حنيناً والطائف، وكان قبل ذلك رأس المشركين في عدائهم للإسلام .. توفى أبو سفيان بالمدينة سنة ثلاثين، وقيل سنة ٣٤ هـ . وقد مرت ترجمته

وقد فهم حسان هذا وسبر أغوار النفس العربية، وعرف كيف يصوب إليها مثل هذه السهام في المقتل، فلم يعف عن مثل هذا الفحش، لأنه سلاح من أسلحة المعركة .

ومن ثم كثر في شعر حسان بعض التعبيرات التي تحمل في طياتها الفحش الجنسي، بل كان قوامها، الأول وإذا أسقطه منها تداعت وتهالكت وافتقدت وقعها في النفس العربية، ولكنها لا تجري على طبيعة واحدة، فمنها مثلاً ما يحمل معنى السباب المباشر الصريح والشتم المقذع مما ألفه الدهماء، وهذه المعاني ساقطة ومرذولة، ومنها ذكر الأست، والأير ... واسمع حسان يقول في مثل هذا :

يا ابن التي لبثت ملياً في استها ∴ أير وفي حَرِها كراع بعـــير
قد كنت لا أهوي السباب فسبني ∴ أحلام طير في قلوب حمير [1]

فحسان هنا مضطر إلى مثل هذا الهجاء المقذع، وذكره لمثل هذه الألفاظ النابية، ولعل الميزة الأهم ــ إن وجدت فيها ــ أن الشاعر كان يوقع مثل هذه الألفاظ على الجانب النفسي ليفيد من معاني العار الاجتماعي، وأترك للقارئ تفسير وتوضيح معاني هذه الألفاظ من المعاجم اللغوية ثم إمعان النظر فيها وتمريرها على نفسه وهي [لبثت ملياً، في استها، أير، وفي حرها، كراع بعير ....] وتخيل هذه الصورة " في استها أير، وفي حرها كراع بعير " ؟ !

أليست هذه الصورة مما ألفه الدهماء، وتعد من المعاني الساقطة المرذولة، لكنه كان من قبل حسان يعتبر من الهجاء النفسي الداخلي الذي يتولى فيه اكتشاف الاختلال الذي يعتري النفس في تنازعها بين الأعمال والتصرفات التي كان يعتبرها أهل ذلك الزمان عاراً ما بعده عار، ويجعل حسان بهجائه هذا خصمه يتصرف تصرفاً يوحي بما في نفسه من الخسة والدناءة واللؤم، خاصة فيما يتصل بالعرض .

وهذا الهجاء في شعر حسان ليس له غاية جمالية في ذاته، كالوصف مثلاً، أو غاية غنائية كالغزل أو تكسبية كالمديح، وإنما هو كالفخر، فن التزامي، كان يصحب السيف، ويتقدمه، ويمهد

(١) راجع الديوان ص ١٢٨ وما بعدها .

له، إنه وسيلة للدفاع عن الذات والكرامة بإظهار مساوئ الآخرين ونقائصهم، لأن شاعرنا لم يوجه هجاءه بمثل هذه القسوة إلى هؤلاء لنزعة فنية جمالية ـــ فقط ـــ جعلته يميل ويطرب للهجاء بذاته ؛ بل إنه لم يهجهم إلا بعد أن تعرضوا له، وحاربوا دينه، وعادوا عقيدته، وأطلقوا ألسنتهم تلوك في أعراض المسلمين ورسول الإسلام ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فكان هذا الهجاء رداً عليهم، وانتصاراً منهم، ولذلك لم نجد معظم هذا الهجاء إلا وكان مرتبطاً بحادثة معينة في السياسة العامة للدولة الإسلامية أو الأفراد ـــ كما مر ـــ ومن ثم نستطيع الحكم على هجاء حسان بأنه نوع من الهجاء النضالي، إن صح هذا التعبير، ولا أعده نوعاً من الهجاء الاحترافي المتفرغ لهواية التشويه، واكتفي بهذا المثال هنا، وقد سبق أن أشرت إلى بعض الأمثلة في القضية ذاتها .

ثانياً (الخيال والتصوير) :

ومن هذه الخصائص الفنية التي تميز بها هجاء حسان للمشركين " الخيال، ومفهومه " يقصد به الصورة التي يرى الشاعر فيها معانيه بخياله بعد تأثره بها، أو هي الترجمة العاطفية للحقائق العقلية التي يتكون منها الموضوع، فإذا كانت المعاني خاضعة لثقافة الشاعر ومعارفه العقلية الخاصة، فإن الأخيلة خاضعة لعواطفه وتأثراته وانفعالاته الخاصة كذلك، فليست واحدة منها من المشتركات العامة، وإنما كل منها يختلف من شاعر لآخر وفقاً لما خضع له عقله .. " [1] .

وللخيال ميزة هامة، أنه يمنح الفنان القدرة على التأثر بالمؤثرات الخارجية، وعلى التمييز بينها، وعلى استرجاع تجارب الماضي بحالتها الشعورية الخاصة بهذه التجربة .. بذلك يكون الخيال " أنفع المواهب النفسية في فن الأدب، فلا يكاد يستغني عنه باب من أبوابه، لأنه خير وسيلة لتصوير العاطفة التي هي العنصر الأول في هذا الفن ـــ خاصة في الهجاء الفردي عند شاعرنا ـــ لأنه يعتمد على الخيال الذي هو اللغة الطبيعية لأداء انفعالاته، مادامت اللغة العادية القاموسية عاجزة عن ذلك فهي موضوعة في الأصل لأداء الحقائق والأفكار .. " [2]، ولا أريد أن أطيل حول هذه القضية أو أذكر أنواع الخيال مثل : الابتكاري والتأليفي والتفسيري وتعريف كل قسم منها،

---

(١) الأدب العربي بين البادية والحاضرة، د . إبراهيم عوضين، ص ٣٠٨ .

(٢) أصول النقد الأدبي، د . أحمد الشايب ص ٢٢١، ط / النهضة المصرية، سنة ١٩٧٣م.

فهذا معروف وكتب فيه الكثير، والشعر العربي بعامة حافل بألوان الخيال المعروفة، لكنه لا يخرج عن البيئة التي ولد فيها، وخرج منها، حيث يحلق الشاعر فينتزع من بيئته الشكل أو الهيئة القريبة التي تبرز رؤيته الخاصة في صورة تشبيه أو استعارة أو كناية، وهو في ذلك دقيق يجمع بين الأطراف من هنا أو هناك فتتراءى له جلية واضحة ...

أما التصوير : فهو تمثيل الشيء في صورة ما من التعبير، وهي في الشعر من أهم أركانه، بل لعل التصوير الشعر كله، وقديماً قيل في تعريفه " إنه تصوير الطبيعة .. "[1] وله ميزة هامة في الشعر فهو يخلع الحياة على الجمادات والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية، وتصف لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين، وتأخذ منهم وتعطي .. في توقد وإرهاف [2] .

ومن خلال عرضنا لهذه الصور والنماذج رأينا أن الخيال والتصوير شكل جزءاً مهماً من وسائل التعبير لدى شاعرنا، فكان هذا الهجاء حافلاً بأنواع المجاز المختلفة من : تشبيهات واستعارات وكنايات استعان بها في إبراز أفكاره وتجسيدها في أشياء مادية محسوسة، وفي صور حية منتزعة من البيئة التي عاش فيها، وملائمة للموضوع الذي يتناوله، فقد كان يستمد هذه الصور من الواقع والبيئة المحيطة بعاداتها وتقاليدها وأحداثها، لأنه لا يستطيع الفكاك منها، ولا نريد أن نطيل هنا أكثر حتى يتناسب وطبيعة هذا البحث، وأذكر بعض الأمثلة هنا، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر، قوله في التشبيه تحت عنوان : " التيوس التي تَنبُّ " :

وأمك ســـــــوداء نوبيـــــــة
كأن أناملها الحنظـــــــــب

يبيت أبوك بها معرســـــــــاً
كما ساور الهوة الثعـــــــلب

(١) شعر الهذليين في الجاهلية والإسلام للسكري ــ فراج، ص ١٨٥ .

(٢) راجع : التصوير الفني في القرآن الكريم ــ سيد قطب ص ٦٣ .

فما منك أعجب يا ابن استهـــا
ولكنني من أولى أعجـــــب

ترى التيس عندهم كالجـــــواد
بل التيس وسطهم أنجـــب [1]

فهو يعطينا صورة ملونة لهذه المرأة، وكأنه رسام يستخدم الألوان المعروفة، فهي نوبية سوداء قاتمة، وتبدو أصابعها الطويلة كالخنافس في الحقارة والاشمئزاز، النفس، ثم يرسم صورة أخرى غاية في البذاءة وهي صورة والده الذي يعرس بأمه (...) كما ساور أي إذا وثب على أمه، كأنه وقع في حفرة أو بئر .. ؟ !! فما أقسى هذه الصورة وأشدها على نفس من قيلت فيه بمثل هذا التصوير " كما ساور الهوة الثعلب " وافهم منها ما شئت .

ويقول حسان مصوراً فرار حكيم بن حزام من المعركة في سرعة ورعب شديد :

نجى حكيماً يوم بدر ركضـــــه
كنجاء مهر من بنات الأعـــــرج

ألقى السلاح وفرّ عنها مهمـــــلاً
كالهبرزي يزل فوق المنســـج [2]

فهذه الصورة الحركية استطاع الشاعر المبدع، أن يرسمها بخياله وينقلها لنا حية نابضة نراها، فمثلاً من خلال البيت الأول جعلنا حسان نتخيل يوم بدر وما حدث فيه من صراع وقتال وكر وفر، وكأننا نرى المهجو " حكيماً " وهو في تلك الصورة المخزية وهو مرعوب خائف، يركض سريعاً كأنه " مهر عربي أصيل منسوب إلى " بنات أعوج وهو فرس سابق ركب صغيراً، وهو أيضاً فحل كريم تنسب إليه الخيل الكرام، هذه الصورة الأولى، والأخرى في البيت الثاني أن حكيماً هذا ألقى السلاح وهذا يدل على جبنه وضعفه، وفرّ كصورة هذا الرجل الذي يرمي

(١) الديوان ص ٤٢، ٤٣ .
(٢) الديوان، ص ٤٩ .

بسهمه فصوره في سرعة فراره كسرعة السهم الذي يرميه الهبرزي، وهذه حركة استطاعت العبارة الشعرية تمثيلها لنا، إذ بدت حركة فرار الفارس من المعركة واضحة فهو يسرع في فراره إسراع الرامي بالسهم، كما يرمي بسهمه .

ومن صور حسان البارعة التي استخدمها في هجاء أعداء الإسلام، وقد رسم لهم فيها أقبح المناظر، فجاءت مخزية، حملتهم على السكوت، لأن فيها الكثير من التقريع والإقذاع، هذه الصورة المشينة والفاضحة، للحارث بن هشام، في قوله من أبيات تحت عنوان: (وارث الخيانة والخنا) وقد مرّت :

أجمعت أنك أنت ألأم من مشى ∴ في فحش مومسة وزوك غراب[1]

والشطر الأخير من البت جمع أحط وأخبث صورتين، الأولى منها يمشي في صورة تلك المرأة الفاجرة الخبيثة التي نزعت ثوب الحياة والعفاف، إذ من معاني فحش المرأة إذا قبحت واشتدت ذنوبها، والمومس : الفاجرة السيئة الخلق، والأخرى مشية في صورة غراب، وافهم من لفظ غراب ما يوحي لك به هذا اللفظ .

ومن تمثيله الجيد، وقد مازجته السخرية والتهكم بالمغيرة بن شعبة، قوله، وقد ـــ مر ـــ :

لو أن اللؤم ينسب كان عبداً ∴ قبيح الوجه أعور من ثقيف [2]

فهنا صورة حقيرة ومزرية لهذا الشخص المهجو، حين رسمه مجسداً للؤم في شخصه، وجعل هذا اللؤم شخصاً يشبه شعبة فهو خبيث قبيح الوجه، أعور العين، غاية في البشاعة وإذا نظرنا إلى هذه التشبيهات السابقة وغيرها نجدها تعطينا صوراً مضحكة، ورسوماً مزرية بهؤلاء الأشخاص، فتبعث فينا الضحك والسخرية منهم، وتكون سبباً في الحط من شأنهم وحقارتهم .

ومن الألوان الخيالية والتعبيرات المجازية التي اعتمد عليها الشاعر أيضاً : الاستعارة وهي تتسم بقرب المأخذ، واستمدها من الحياة المحيطة به وصور البيئة، وثقافة المجتمع في ذلك العصر، فلا

(١) الديوان، ص ٤٢ .

(٢) الديوان، ص ١٦٧ .

غموض فيها، ومن ثم اتضحت مدلولاتها لوضوح المشابه والجوامع فيها، لأنها تعتمد على الحس المجسم والمرئيات القريبة التناول، وهي كثيرة في هجائه للأفراد ومنها ما قاله في هند بنت عتبة، تحت عنوان : " الطويلة البظر " ومنها :

وعصاك استك تتقين به ... دق العجاية عاري الفهر[1]

ومن هذه النماذج القاسية كذلك، قوله مصوراً لسعد بن أبي سرح مستخدماً تلك الألوان المجازية والخيالية :

أعبد هجين أحمر اللون فاقـــع
مونر علباء القفا قطط جعـــــــدُ

وكان أبو سرح عقيماً فلم يكن
له ولد حتى دعيت له بعـــــد [2]

فانظر إلى هذه الصورة ذات الألوان والظلال، وقد ارتكز الشاعر فيها على المعنى الجسدي والمادي المشاهد بالعين، وعبر عنه باللون الأحمر، والأفضل أن يقول "الأحمر القاني" وليس الفاقع لأنه وصف للون الأصفر، وكذلك المعنوي الأخلاقي في " عبد هجين " ثم ما بالك بهذه الكناية الرائعة في البيت الثاني، وكان أبو سرح عقيماً .. ؟ ! فهذا كناية عن ضعة نسبه، وأن الرجل الذي ينسب له كان لا ينجب فكيف جاء ؟ فهو يرمي أمه بالفجور والزنا، وأنها جاءت به من غير والده .

ولحسان باع طويل في مثل هذه الكنايات الرائعة والصور الجيدة والتي كانت سبباً في تحقير من قيلت فيه، وصورته بهذه الصورة القاتمة المشينة، وانظر إلى ما قاله في أبي سفيان بن الحارث، وقد مر :

---

(١) الديوان، ص ١٣٨ .

(٢) الديوان، ص ٩٣ .

لعمرك إن إلك من قريـــــــش
كإل السقب من وائل النعـــــــام

فإنك إن تمت إلى قريـــــــش
كذات البو جائلة المـــــــرام

وأنت منوّط بهم هجـــــــين
كما نيط السرائح بالخـــــــدام [1]

وإلى جانب هذه التشبيهات والكنايات التي استخدمها حسان لهجاء هؤلاء المشركين استخدم كذلك بعض ألوان البديع : من طباق وجناس، ولكن كان استعماله لها قليلاً، لأن هذا اللون من البديع لم يكن شائعاً في ذلك العصر، ومنه في أبي سفيان بن الحارث :

بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء [2]

ثالثاً : ومن الخصائص الفنية في هذا الهجاء وخاتمة :

ظهور الوحدة الموضوعية للقطعة التي ينظمها حسان، أو استقلال القطعة الشعرية عنده بموضوع واحد، وخاصة في هذا الموضوع الذي نتناوله، وهذه الاستقلالية للقطعة الهجائية من أهم الخصائص والمميزات التي يمتاز بها شعر حسان بن ثابت، لأن بذور الهجاء عنده في الشعر الجاهلي كانت تتحد اتحاداً عميقاً بالفخر والسياسة، وأضاف إليها ما يغلب عليه أن يكون قريباً من فن النقائض، والذي أينع وأثمر وازدهر في العصر الأموي ـــ كما هو معروف ـــ .

ومن خلال النظر في ديوان حسان والبحث فيه عن الهجاء للأفراد، نلاحظ أنه استقل عن سائر الأغراض الشعرية الأخرى كالمديح، والرثاء، والفخر، كما ظهر هذا مثلاً فيما يلي :

١ ـــ القطعة التي يذكرها في فرار الحارث بن هشام يوم بدر، تحت عنوان : (ترجو النجاء

---

(١) الديوان، ص ٢٤٢ .

(٢) الديوان، ص ٢٠ .

وليس حين ذهاب) [1]" وفيها يدخل في الهجاء مباشرة بدون أن يسير على نهج القصيدة القديم، من بدايته بالمقدمة الطللية والغزل، والحديث عن المرأة ... الخ وكذلك أنه بدأ هذه الأبيات بالمنادى المرخم (يا حار) وهذا يدل على عاطفته وانفعاله بموضوع قصيدته، ويدل كذلك استقلاليتها، لأنه جعلها خاصة ومستقلة بهجاء فرد بعينه، هو الحارث، وهذا ما يميز شعر حسان في هذا الموضوع، في عصر كان الشاعر فيه يذكر في قصيدته أكثر من موضوع .

٢ ـ وبعد هذه القصيدة تأتي بعدها في الديوان مباشرة قصيدة مثلها في غرض الهجاء ولشخص يحمل نفس الاسم السابق، لكنه غيره فالأول كان حسان يقصد به الحارث بن هشام، وهذا يقصد به " الحارث بن عامر" وكان فيمن سرق غزال الكعبة، وقد مرت القصيدة، وبنفس الطريقة يدخل حسان في الموضوع مباشرة بدون مقدمات، ويستخدم النداء المرخم (يا حار ..) [2] .

٣ ـ وكذلك الأبيات التي يهجو فيها صفوان بن أمية، وقد بدأها بقوله (من مبلغ صفوان) ويستخدم أسلوب الاستفهام الإنكاري والتعجبي لفظاعة وقسوة معاني الأبيات، وراجع هذه الأبيات والقصائد والمقطعات في الديوان تحت غرض الهجاء الخاص بالأفراد موضوع هذا البحث [هجاؤه للوليد بن المغيرة، والحارث بن هشام، أسيد بن حضير، ربيعة بن الحارث .... ولأبي جهل، وأمية بن خلف ...] وغيرهم كثير مما يجعلنا نحكم على أبياته ومقطعاته تلك بأنها غلبت عليها الوحدة الموضوعية أي ذات موضوع واحد، وهذا يجعلنا ندخل إلى خاصية أخرى من تلك الخصائص الفنية التي تميز بها هذا الهجاء في شعر حسان، وهي : أن هذه الوحدة المشار إليها في القصيدة أدى إلى توحيدها وتفردها بنوع خاص من الوحدة الفنية (العضوية) التي كانت تندر في الشعر الجاهلي أو المخضرم .

وأستطيع القول من خلال هذه السطور إن شاعرنا حسان بن ثابت يمكن أن يمثل ظاهرة

---

(١) راجعها في الديوان ص ٣٥، ٣٦ .

(٢) الديوان. ص ٣٧ .

خاصة، لأن شعره في هذا الاتجاه الهجائي لم يكن وليد الميل إلى التكسب أو ذكر المثالب حباً فيها كالحطيئة، وإنما وليد تلك السويداء الموحشة القاتمة ضد أعداء الدين، والحاقدين على نبي الإسلام ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأيضاً كان وليد الأمر الذي أصدره الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لحسان أن يصوب إليهم لسانه الطويل ويطعنهم في أحسابهم وأعراضهم، بل ودعا له " اللهم أيده بروح القدس " فنفذ حسان هذا الأمر، ولم ينشغل بغيره، ووظف فنه وقصره على الدفاع عن الدعوة والذب عن حياضها، فكان لزاماً عليه أن يلتزم في فنه، وتكون قصيدته في موضوع واحد، ولا نغالي إذا ما قلنا إن مقطعاته الشعرية تحققت فيه الوحدة الموضوعية وأيضاً العضوية .

ومن خلال ما قدمنا في هذه السطور نرى أن هجاء الأفراد المشتركين في شعر حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ انعكست فيه التيارات الدينية والسياسية والاجتماعية التي طرأت على هذا العصر، وقد تكلم ونظم في فن النقائض ـــ كما سماه النقاد فيما بعد ـــ عندما كان يرد على شعراء المشركين مثل " عبد الله بن الزبعري ـــ أبي سفيان ابن الحارث، ضرار بن الخطاب، هند بنت عتبة، وغيرهم " وذكرنا بعض الأبيات التي كانت تصدر عن نوع من الهواية الذاتية بتصوير المنكر لدى هؤلاء، وإظهار عوراتهم وكشفها للجميع، ورأيناه قد خرج فيها من النزعة الالتزامية إلى تلك النزعة الوجدانية النفسية التي تفيض منها المعاني والرؤى والصور الشعرية من أعماق الكراهية والبغض الديني لهؤلاء المشركين .

ومن تلك الخصائص الفنية لهذا الهجاء ما ظهر جلياً وواضحاً من حيث الألفاظ والتراكيب في الجاهلية والإسلام، فهذا البحث خاص بهجاء المشركين، فقد قال هذا الهجاء في رحاب الإسلام وألفاظه وتراكيبه ومعانيه الإسلامية لسنا في حاجة للحديث عنها، فهي سهلة وواضحة وامتازت بارقة والعذوبة والبعد عن الغموض، وقد درستها الكثير ممن تعرضوا للحديث عن حسان وشعره، فلا حاجة لنا في تكرارها .

هذا وبالله التوفيق،، وهو أعلى وأعلم

" من أهم المصادر والمراجع "

أولاً : القرآن الكريم : كلام الله ــ عز وجل ــ المنزل على رسوله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعزّ من أنزله .

ثانياً : من أهم الكتب والدراسات :

(١) أدب الدعوة الإسلامية ــ تأليف د . مصطفى محمود يونس، مطبعة قاصد خير بالفجالة، القاهرة .

(٢) الأدب العربي بين البادية والحضر ــ د . إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، للحافظ أبي عمرو يوسف ابن عبد الله بن عبد البر النمري .. على هامش كتاب الإصابة، وثق نصوص الكتابين وحقق أصولهما، طه عبد الرءوف سعد، ط / دار الغد العربي، بدون .

(٤) أسد الغابة لعز الدين بن الأثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا، ومحمد عاشور، ومحمود عبد الوهاب، ط / الشعب ــ القاهرة، سنة ١٩٧٠ م .

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن علي بن محمد الكناني، وبهامشه الاستيعاب، وثق نصوص الكتابين وحقق أصولهما، طه عبد الرءوف سعد، دار الغد .

(٦) أصول النقد الأدبي، تأليف : أحمد الشايب، الأستاذ بجامعة القاهرة سابقاً، ط/ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٣ م .

(٧) الأعلام : خير الدين الزركلي، ط / دار العلم للملايين ــ بيروت، سنة ١٩٧٩ م .

(٨) الأغاني لأبي الفرج (علي بن الحسين الأصفهاني) طبعات : دار الكتب المصرية بتحقيق مصطفى السقا سنة ١٩٨١ م، ودار الكتب بتحقيق عبد السلام هارون سنة ١٣٧٩ هـ، دار الثقافة بيروت، لبنان سنة ١٩٥٦ م، وطبعة ساسي، والهيئة المصرية العامة .

(٩) البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف بيروت ط / سنة ١٩٦٦ م، وطبعة دار الغد العربي ـــ أولى سنة ١٩٩١ م .

(١٠) تاريخ الشعر العربي في صدر الإسلام وبني أمية د . محمد عبد العزيز الكفراوي، ط / دار نهضة مصر بدون تاريخ .

(١١) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط / دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

(١٢) تاريخ ابن عساكر، تصحيح الشيخ عبد القادر بدران سنة ١٣٣٢ هـ والتاريخ الكبير لابن عساكر، وهو أبو القاسم علي ابن الحسين بن هبة الله المتوفى سنة ٥٧١ هـ ط / روضة الشام سنة ١٣٣١ هـ .

(١٣) التصوير الفني في القرآن الكريم، الأستاذ / سيد قطب، طبعة سادسة سنة ١٩٨٠ م .

(١٤) تفسير ابن كثير : للإمام الحافظ أبي الفدا إسماعيل بن كثير القرشي، ط / دار صادر، ودار المنار للنشر ـــ القاهرة، ومطبعة الأنوار المحمدية تحت عنوان [تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل عماد الدين ..] بدون تاريخ .

(١٥) تفسير الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للمفسر العلامة والمحدث .. أبي الثناء محمود ابن عبد الله بن محمود الآلوسي، الناشر دار الغد العربي تحقيق طه عبد الرءوف سعد، بدون تاريخ .

(١٦) حسان بن ثابت د / سيد حنفي حسانين ط / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٣ م .

(١٧) حسان بن ثابت د / إحسان النص، ط / دار الفكر ـــ طبعة ثانية سنة ١٩٨٥ م .

(١٨) دراسات في الأدب الإسلامي، د . محمد خلف الله أحمد، ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ م، القاهرة .

(١٩) ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه وقدم له الأستاذ عبد أ . مهنا، ط / دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، أولى، سنة ١٩٨٦ م، وديوان حسان بن ثابت د . سيد حنفي ط / دار المعارف مصر سنة ١٩٣٨، ودار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٩٨٣ م.

(٢٠) سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ط / مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م.

(٢١) السيرة النبوية لابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام العافري، تحقيق : أحمد حجازي السقا، ط / دار التراث العربي، القاهرة، سنة ١٩٧٩ م، وطبعة دار الفكر ـــ القاهرة، وقد راجع أصولها وعلق على حواشيها نخبة من العلماء، بدون تاريخ .

(٢٢) الشعر الإسلامي في ظلال النبوة والخلافة الراشدة د. عبد السلام عبد الحفيظ ط / قاصد خير، الفجالة .

(٢٣) الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق أحمد محمد شاكر ط / ثالثة سنة ١٩٧٧ م .

(٢٤) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه د . يحيى الجبوري، ط / مؤسسة الرسالة بيروت، ثالثة، سنة ١٩٨٨ م .

(٢٥) صحيح مسلم بشرح النووي للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، راجع ضبطه وأحاديثه وعلق عليه د. محمد محمد تامر، ط / دار الفجر للتراث ـــ الثانية سنة ٢٠٠٤ م، القاهرة .

(٢٦) طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، مع دراسة عن المؤلف والكتاب، للمرحوم الأستاذ / طه أحمد إبراهيم، ط / دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٨ م، ثانية .

(٢٧) العصر الإسلامي د . شوقي ضيف، ط / دار المعارف، الطبعة الرابعة عشر سنة ١٩٩٣ م .

(٢٨) العصر الجاهلي د . شوقي ضيف، ط / دار المعارف مصر، الطبعة الرابعة عشر سنة ١٩٩٣ م .

(٢٩) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين والأبياري ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٦٥ م .

(٣٠) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحقيق طه عبد الرءوف سعد .

(٣١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، لمحمد بن عمران المرزباني تحقيق محب الدين الخطيب، ثانية، القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ .

(٣٢) الهجاء، بقلم الدكتور محمد سامي الدهان، ط / دار المعارف مصر سنة ١٩٨٢ ثالثة .

(٣٣) الهجاء والهجاءون في الجاهلية والإسلام، د . محمد محمد، ط/ دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت سنة ١٩٧٠م، وطبعة مكتبة الآداب سنة ١٩٤٧م، وفي الإسلام سنة ١٩٤٨م .